



رحيل الزمالة

يحل الزمان شيخ بجنتك بمجداف القارب — ثم امرأة تنظر الإمام فهي تحمل الرجاء (الاستقبال) ثم أخرى تعزف على آلة موسيقية تحمل الطرب (الحاضر) وثالثة مسندة رأسها بذراعها تستعيد الذكريات فهي تحمل الذاكرة (الماضي)

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الواحد بعد المائة

٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٦١

١ ديسمبر سنة ١٩٤٢

العلم والديمقراطية^(١)

إذا كانت كلمة اينشتاين : « الدكتاتورية تعني كمّ الافواه والعقول ، فالعاقبة هي الضمور والهدم ، واما العلم فلا يزدهر إلا في جوٍّ من الحرية » ، تلخص لباب الصلة بين العلم والدكتاتورية ، فكلمة فولتير المشهورة : « انني أمقت ما تقول وأخالفك في كل كلمة منه ولكنني أدفع بحياتي عن حقك في قوله » ، تلخص لباب الصلة بين العلم والديمقراطية فالديمقراطية من حيث هي نظام سياسي للحكم ، مفرغ في قالب الحكم النيابي ، ومن حيث هي نظرة فلسفية الى الاجتماع البشري وصلة الناس بعضهم ببعض ، وصلتهم بالدولة ، تسعى أبدأ الى تحقيق حريّات شتى وضمانها ، وهذه الحريات ، من الارتقاء البشري ، في منزلة السائل الحيوي المندفع في العروق . وهذا السعي نابع من الايمان بأن السلطان الاول والأعلى على شؤون الناس يجب أن يكون للعقل لا للشهوة . وللفكر لا للدماء . وفولتير وجون ستيوارت مل ، وهما قطبا الدعوة الى الحرية كانا يعلمان أن الانسان أميل بطبعه الى الشهوة منه الى العقل ، فغراؤه متأصلة في تركيبه الجثامي من الوف السنين ، واما العقل فلا يعدو كونه طبقة جديدة على سطح تكوينه السيكلولوجي ، ولذلك كانا مقتنعين بأنه لا بدّ من اخضاع الشهوة أو الغريزة ، لضبط العقل المثقف المصقول . وانه ما لم يعتمد المرء الى أداة المناقشة المطلقة

من القيود ، والنقد الحر ، وما لم يتعلم أن يستمع الى الرأي المعارض ، فلا أمل له في بلوغ الحكمة ، اي لا أمل له في تنشئة العقول التي تجعل المجتمع الأمثل او الدنوّ منه مستطاعاً ، ولو كان تحقيقه على وجه الأتم بعيد المنال

هذه النزعة الى تحكيم العقل ، هي الصفة التي تميز حضارتنا الحديثة ، في نظمها السياسية ونزعاتها الاجتماعية هما سبقها ، من حضارات ، وعما ينبت في أحضانها من نبات دكتاتورى غريب عنها . فلباب حضارتنا الديمقراطية ، ليس تقدّمها المادي والصناعي مع اننا نهر به . ولا ثروتها وثورتها الصناعية التي أفضت الى الاستعمار . فالثروة بحدّ ذاتها محترقة والاستعمار أبداً ممقوت . ولكن لبابها هو خلاصة التراث الذي خلفته شعوب شتى فشيدت صرحاً رفعت فيه من شأن الانسان وأعزّت من كرامته . ففرنسا عن طريق فولتير وغيره أيّدت ما للعامل الانساني من شأن عظيم في بناء الحضارة والايمان بالعقل والاصرار على ان للانسان المفكر كرامة في ذاته . وليس هذا بالشيء الجديد في التاريخ فقد سبقت الحضارة الاسلامية اليه عند ما كانت في ابان عزها ففهرت العالم والتاريخ بعلمهم وفنونها . ولكن سبعة قرون أو ثمانية انقضت قبل أن استكشف مفكرو فرنسا هذه الحقائق الاساسية مرة ثانية وجعلوها عناصر أساسية في نظام فلسفي . ثم تمكنوا عن طريق الثورة الكبرى من جعلها أركان النظام السياسي الاجتماعي

وقد علمتنا الأمة البريطانية ان السلطان السياسي ينطوي على شيء أهم من مجرد التعبير عن مصالح الجماعة التي في الحكم ، وأشهدتنا على ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وان في وضع الانسان التمتع بالحرية بغير أن تنتشر الفوضى ، وفي وضع الحكومة ان تمارس السلطات بغير أن يعم الاستبداد

وكيفما قبلنا النظر في ارتقاء العالم في القرنين الأخيرين ، بعد عهد الاستنارة ، نجد المبادئ نفسها مفرغة في قوالب شتى . فثمة أولاً الفكرة الأساسية التي قوامها ان الفرد الانساني غاية في حد ذاته . وليس مجرد آلة أو أداة تحرّكها قوة طاغية . واذا سلّمنا بأن الفرد الانساني له قيمة في ذاته ، استخرجنا من هذه القاعدة الأصلية ، القول بوجوب منح هذا الفرد بضع حريات أساسية ، لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق . ومن هنا المطالبة بأن تطلق له الحرية ليزن الأمور ويحكم عليها بنفسه وان يناقش وأن يبحث وأن يعرب عن رأيه . فالحرية المدنية والروحية هي روح الحضارة وهي روح الديمقراطية . أما المخترعات والمكتشفات فلم تنبع إلا من الاعتراف بكرامة العقل وحرية الانسان ، والمواهب البسطة المولدة ، التي كشفت واخترعت ، لا بد أن نحمد عند ما ينطفيء ذلك الروح ، فتغدو المواهب

جميعاً وكأنها جهاز كسّر محرّكه أو جسم فقد سرّ الحياة فيه
نعم ان الحكومات الديمقراطية لم تحقق كل هذا على وجهه الأوفى ، ولا على وجهه الذي
يرضي . واذا كانت الحريات السياسية في بعض البلدان مضمونة ، دستورياً وعملاً ، فان
الحريات الاقتصادية ليست كذلك ، ولا الاجتماعية ، ولا بدّ أن يؤثر ذلك في ممارسة الحريات
السياسية . ولكن يكفي أن المثل الذي نسعى اليه أمامنا مهما يكن بعيد المنال ، ونحن على ما فينا
من نقص وجهل وأثرة ، نحاول ان نتغلب عليهما . فالحاجة الى مزيد من حرية العقل ، وحرية
تفكيره ، وضبط الشهوات واخضاعها . فعلينا أن ن فكر بعقولنا لا بدمائنا ، لا أن نقلب الآلة
كما يريدنا الطغاة أن نفعل وكما فرضوا على شعوبهم أن تفعل

في هذا الجو ، الذي نشأت فيه هذه المثل السياسية والاجتماعية ، نشأ العلم الحديث
وازدهر . وقد كان طريق حرية البحث والمناقشة والتعبير عن الرأي طريقاً وعراً . ولكن
النتائج الباهرة التي أسفر عنها البحث العلمي ذلّت الصعاب ، ومهّدت الوعر ، فعزّزت ما
اعترف به في بيان الحقوق الاميركي ، وبيان الحقوق الفرنسي من حق حرية الفكر وضمانها ،
ومن ثمّ دخل هذا الحق الدساتير الحديثة وضمنته الدول التي أخذت بأساليب الحكم النيابي
ولكن النصّ عليه في الدساتير ، شيء ، وتطبيقه والتمتع به شيء آخر . فالنصّ عليه
في الدساتير ، لم يكن كافياً للتغلب على جميع ألوان المعارضة لهذه الحرية ، من قبل جماعات
مختلفة من الناس ، ظنّت ان مصلحتها مقدّمة على مصلحة المجموع . ولذلك كان سبيل الحرية
الفكرية ، أبداً سبيل كفاح ونضال . ومن أمجاد الانسانية ، ان رجال الفكر الخالصين
رسالتهم ، أدركوا في كل عصر ان النهوض بمهمتهم ليس فيه ما يغري ، إلاّ الوعد بأن كلّ
من يؤدي مهمته يفوز باحترام النفس ، ويحقّ له أن يعدّ نفسه — على الرغم من النفي
والتشريد والموت — جندياً في « حرب تحرير الانسانية »

حتى في البلاد التي اشتهرت بأنها مهد من مهد الحرية الفكرية ، كالولايات المتحدة ، كان
لابدّ لرجال الفكر من اليقظة الدائمة لتأييد حقهم بالكفاح . وقد رأيت أن أضرب مثلاً
أو مثلين على هذا وحسي ذلك الآن

الجامعة وحرية البحث

كان التمسك بعبارة الذهب من حيث هو أساساً للنقد ، مبدأ في منزلة العقيدة ، عند
أهل الولايات الشرقية من الولايات المتحدة الاميركية ، وكان جلّهم من المحافظين . وفي سنة
١٨٩٧ دعا الدكتور اندروز رئيس جامعة برون ، الى استعمال النقدين الكريمين أي الذهب

والفضة Bimetallism فساء رأيه هذا كثيرين من أمناء الجامعة وأصدقائها . نعم انه لم يعف رسمياً من مهام رئاسة الجامعة ، ولكنه تعرض لنقد لاذع من قبل أعضاء مجلس الأمناء فلم يسعه إلا الاستقالة . وعينت لجنة للاجتماع بالرئيس ، لا لتطلب منه التخلي عن رأيه بل للانكفاء عن اذاعتها لئلا يضر نشرها بمصلحة الجامعة من الوجهة المالية ، وهي معتمدة كما نعلم على تبرع الموسرين . ولم يكن أساتذة الجامعة طرفاً في هذا الجدل ولكن لم يسعهم السكوت على هذا التعرض لحرية الرأي . فأعدوا بياناً ناشدوا فيه مجلسي الأمناء الكف عن هذا التعرض ومما جاء في هذا البيان قولهم : ان عمل الامناء :-

« قائم على نظرية اذا أصبحت أساساً لعمل واسع النطاق ، أكلت قلب معاهدنا ، وهي نظرية ان نمو الجامعة من الناحية المادية ، أهم من استقلال الفكر والتعبير المباح لرئيسها وأساتذتها . وان لمجالس الامناء الحق في أن يقترحوا حدوداً لهذا الاستقلال »

« فليست وظيفة الجامعة أن تمثل طائفة معينة من الآراء السياسية أو الدينية ، أو أن تدعو اليها ، بل أن تلهم الشباب محبة الحقيقة والعرفة ، وأن تعلم بحرية وتسامح وسائل ادراكهما . ووظيفتها أن تتيح تربية قائمة على الحرية لا على التحكم »

« إن طلابنا سيعلمون ، ان صمت رئيسهم في بعض الموضوعات شري شراء أو فرض عليه فرضاً . . . فاذا داخلهم ريب في ذلك فانهم سيشكون في الاساتذة »

« ونحن لم نتكلم دفاعاً عن آراء الرئيس المالية لأننا على العموم وعلى مدى فهمنا للمسألة مخالفون له فيها . . . ونحن يهمننا طبعاً نمو العهد من الناحية المادية وأشد اهتماماً من غيرنا بتقدمه واتساعه ، ومع ذلك لا نرى أن نموه يحقق ولا نعتقد أن نموه يمكن أن يحقق ، بالضغط السياسي والانقياد له . لأننا مؤمنون بأن سيال الحياة في عروق الجامعة هو الحرية لا المال »

وتاريخ هذا البيان اول يوليو ١٨٩٧ وقد وقعته اربعة وعشرون من اعضاء مجلس الاساتذة . ولكن الرئيس اندروز كان قد قدّم استقالته ، بعد ما وجه اليه من لوم الأمناء ، فقال انه عاجز عن تحقيق رغبات الأمناء بغير التخلي عن حرية التعبير التي تتمتع هو وزملاؤه بها وأسلافهم من قبلهم

وتوالى البيانات الموجهة الى مجلس أمناء جامعة برون ، وهي تناشدتهم استدعاء اندروز وتقليده الرئاسة ثانية ، ونزع وصمة تقييد حرية الرأي عن جبين جامعة برون . وطلب نحو ستمائة خريج من خريجي الجامعة أن يعمل الامناء عملاً من شأنه ابطال التهمة الموجهة اليهم وهي التهمة التي لباها تقييد حرية البحث والتعبير عن الرأي في جامعة برون . وكتب اساتذة

دوائر العلوم الاقتصادية في جامعات اميركية اخرى — ومنهم توسيج في هارفرد وسليجس في كولومبيا — معربين عن أملهم في أن يمتنع مجلس اعضاء جامعة برون عن الاقدام على عمل ما يمكن ان يفسر بأنه تقييد لحرية الرأي في هيئات المعلمين في جامعاتنا . . . لأن كل بحث اداري او تحقيق في سلامة الآراء المعبر عنها في مسألة ما او مجموعة من المسائل ، لا بد أن يحد حرية التعبير ويميل الى القضاء على الاستقلال العقلي ، ونقص احترام الناس لنتائج البحث . وتدخل رؤساء الجامعات الاخرى — مثل اليوت رئيس هارفرد وجلمن رئيس جونز هبكنز — فأرسلوا الى أمناء برون بياناً اقترحوا فيه عملاً من قبل الأمناء يفضي بالرئيس اندروز الى استرداد استقالته

وبعد ثلاثة اشهر اقر مجلس أمناء برون باجماع الحاضرين (وكان خمسة من الاعضاء غائبين) توجيه رسالة الى الدكتور اندروز ينكرون فيها رغبتهم في تقييد حرية الرأي أو الحد من مدى معقول لحرية التعبير . وطلبوا الى الرئيس استرداد استقالته . فاستردها ولبث سنة في الرامة ثم استقال ليتفرغ للتأليف

تقييد العلم بالتشريع

في صيف سنة ١٩٢٥ حوكم في بلدة ديتون بولاية تينيسي من الولايات المتحدة الاميركية مدرس شاب يدعى سكوبس لأنه علم الطلاب مذهب التطور العضوي ، مخالفاً بذلك شروط المدرسة التي يدرس فيها وقوانين الولاية القاضية بان يُعلم بصحة الاصحاب الأول من سفر التكوين عن الخلق . وكانت هذه المحاكمة اثرأ من دعوة طويلة عريضة ، دعا اليها فريق من الناس ، فاصابت نجاحاً في ولاية او ولايتين وأخفقت في غيرها . اي ان جماعات منظمة من الناس حاولت ان تفرض قيلاً على العلم والتعليم عن طريق التشريع . وقد كتبت في المقتطف في عدد اغسطس من سنة ١٩٢٥ قبيل المحاكمة : قد يكون المستر بريان Bryan — وهو سياسي ديمقراطي وخطيب مفعو ولكنه ليس عالماً — مصيباً في ان مذهب النشوء القائل بان انواع النبات والحيوان تولد بعضها من بعض جرياً على نوااميس الطبيعة ، كما تولد عندنا القطن السكلاريدي من العفقي ، وكما تولدت اصناف الكلاب المختلفة من أصل واحد أصلي على مرور الزمن ، قد يصح قوله بان هذا المذهب يتوصل به بعض الناس الى الاستخفاف بالاديان وإنكار فعل الخالق واباحة ما لا عقاب عليه قانوناً ، ولكن اذا كان مذهب النشوء صحيحاً لذاته وجب التسليم به كما يجب التسليم بكل ما هو صحيح لذاته وقد يصدر حكم المحلفين بادانة الامتاذ سكوبس لانهم يختارون في الغالب من الصناع والتجار والعمال الذين يجهلون العلوم الطبيعية ولكن حكمهم يكون هزئاً لدى حكماء العصر .

فان مجمع تقدم العلوم الاميركي اقام ثلاثة من اكبر علماء البيولوجيا وهم الاستاذ كونكلن استاذ البيولوجيا في برنستون في جامعة برنستون، والدكتور دافنبورت مدير النشوء الامتحاني (التجريبي) في معهد كارنيجي في واشنطن، والدكتور اوسبرن رئيس امناء متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك، فقرروا اولاً ان الأدلة التي اقيمت على نشوء الحيوانات بعضها من بعض والانسان منها، لادليل على انها ظنون وما من مذهب علمي تأيد بأدلة أثبتت من الأدلة التي تأيد بها مذهب النشوء. وثانياً ان الأدلة على نشوء الانسان كافية لاقتناع كل عالم طبيعي (مواليدي) يؤبه له في المسكونة، وهذه الأدلة تزيد عدداً وشأناً كل سنة. وثالثاً ان مذهب النشوء من أنفع المذاهب التي اختبرها الناس فانه دعا الى توسيع المعارف وعزز البحث الخالي من الغرض وساعد على التفتيش عن الحقائق مساعدة لا تثنى. ورابعاً ان كل تشريع الغرض منه تقييد مذهب علمي شائع مؤيد الى هذا الحد كمذهب النشوء، يكون خطأ محضاً يضر تقدم المعارف ويؤخر ارتقاء البشرية بنفيه حرية التعليم والبحث الضرورية لكل تقدم ونجاح واستفتت مجلة نايتشر طائفة من كبار رجال العلم والتعليم والدين في هذا الموضوع فقال الاستاذ مكبريد في ما قاله — وهو استاذ علم الحيوان في كلية العلم والفن الامبراطورية بسوث كنسنجتون — ان الطريقة الوحيدة الفعالة لمقاومة الرأي الميكانيكي المادي هي ان ننتقده نقداً مقنعاً مبنيّاً على المبادئ الكمالية. وهذه هي الطريقة التي اتبعت في انكارتا ومن أكبر انصارها هكسلي... وقد ارتقى هذا النقد بعد هكسلي ارتقاءً عظيماً فنجم عن ذلك ان جميع الناس في بلاد الانكليز ومنهم قساوسة الكنيسة سلّموا بصحة مذهب التطور من غير ان يقبلوا الرأي الميكانيكي في الحياة والكون. وقال الدكتور بارنز رئيس أساقفة برمنغهام: « انني لأربأ بنفسي كرجل يحلّ الحرية الفكرية عن أن أرى جماعة انجلوسكسونية تحاول ان تمنع نشر المعارف بالتشريع » وبعد ما بحث الموضوع من ناحية صلته بأقوال الانجيل قال: « ان العاقبة الوحيدة التي لا بدّ ان تنشأ عن مقاومتهم العلم باسم الدين، هي اغراء الوف من طلبة المدارس الأحداث بالتخلي عن المسيحية حاسبين خطأ انها مرتبطة كل الارتباط بهذا الغباء ». وقال الاستاذ ارنست باركر مدير كلية الملك بلندن « ان روح الحرية الذي أوجد المجالس النيابية وهو روح حياتها يجب أن يمنعها عن القضاء على روح الحرية الذي نفخ في معاهد التعليم وصار روح حياتها كذلك » (١)

وليس غرضي أن أعرض لموضوع المقابلة بين أنصار التطور وخصومه — وليس على ما أعلم له خصوم بين العلماء الذين يعتد برأيهم — ولكن الغرض ان أبيّن انه على الرغم

من النصر في بيان الحقوق الأميركي على حرية الفكر، كان لا بدّ لانتصار هذه الحرية من ان يخوضوا في سبيل تثبيتها وضمانها معارك حامية

والسبب واضح لا يعتوره الغموض ولا ريب . فالغرض من التعليم تنبيه القوى العقلية وتدريبها ، وليس ثمة معلم يستطيع ان ينبه عقول تلاميذه ويديرها الا اذا استعمل عقله حرّاً من القيود . فاذا علم ما يؤمر بتعليمه كان هو وتلاميذه كآلة ، هو ينقل ما قيل له ان ينقله ، وهم يقبلونه من غير بحث ولا مناقشة وكان العلم والتعليم سطحيين . ومتى قيد المعلم كذلك ، فقد احترامه نفسه وما له من مقام وكرامة في نفوس تلاميذه ، واذا فقد مقامه في نفوسهم عجز عن التأثير في عقولهم . والتعليم الصحيح يتوقف على اشتراك المعلم والتلميذ في البحث اشتراكاً حرّاً ، هو يعلم ما يعلّمه البحث والفكر وهم ينقادون اليه لما في تدريبه من قوة فيقودهم في سبيل البحث والتنقيب ولا يستطيع أحد ان يقود غيره اذا لم يكن كلامه خارجاً من أعماق نفسه

والمعلم المستبد بآرائه المتعصب لها ينشئ طلبة جامدين ، والدولة التي تجري على نظام تعليمي هذا أساسه تفشي أمة تهمل الحرية الفكرية اللازمة للارتقاء
اننا لا نستطيع ان نملي على مجلس تشريعي مستقلاً ما يجب أن يقرّر فيه . ان الرأي العام قوة عظيمة ولكننا لا نستطيع ان نكون رأياً عامّاً ناضجاً من غير مناقشة ، ولا مناقشة صحيحة من غير تعليم صحيح حرّ ، وتدريب للعقول على التفكير المستقيم . فاذا حاول مجلس من المجالس التشريعية أن يقضي على حرية التعليم قضى على نفسه لأنه قائم على حرية القول . واذا سعى الرأي العام الى طمس حرية الفكر والقول طمس صوته القوي ، لأن الرأي العام ينشأ من حرية التفكير والقول . وما من دولة ديمقراطية تقدر أن تقضي على الحرية أو تخمد حرية الفكر بغير أن تقضي على ذاتها وتخمد شعلة حياتها

ولذلك قلت ، ان العلم والديمقراطية ، من حيث لباب الصلة بينهما ، قوتان متفاعلتان . الديمقراطية تكفل للعلم الجو الذي يترعرع فيه ويزدهر . والعلم يدرّب العقول على التفكير الحرّ المستقيم ، وهو ما لا غنى عنه في الدولة الديمقراطية . واذا صحّ ان صوت الشعب من صوت الله ، فيجب أن يكون صوتاً صادراً عن تفكير مستقيم ، وإلاّ صحّ فيه قول خصوم الديمقراطية : ان صوت الشعب صدى لصوت الشيطان ، وهم يقولونها تسويغاً لكبت هذا الصوت

العلم والحرية الاقتصادية

اذا استباننا الصلة الأصلية بين العلم والديمقراطية ، اتضحت صلات أخرى بينهما ، تتفرع على هذه الصلة الأصلية . فالديمقراطية في معناها الأمثل تسعى الى تحقيق الحرية الاقتصادية

والاجتماعية علاوة على ضمان الحرية السياسية . لأنه اذا كان أفراد الشعب على جانب من الاكتفاء الاقتصادي ، كان أفرادهم أقل تأثراً بأقوال المهيمنين الذين يدعونهم الى التفكير بدمائهم ، واحكم اشتراكاً في الشؤون العامة ، وأرشد رأياً فيها ، وأكثر استقلالاً في وزن الأمور . وليس ثمة ريب في ان ما أسداه العلم الى الحضارة سهل أسباب العيش على كثيرين من الناس ولكنه أفضى الى غير قليل من التفاوت والأثرة والتوزيع الجائر والزرعة المادية . ودواء هذه العلل ليس في اخاد شعلة العلم بل في زيادتها تأججاً ، ولكن على العلم والسياسة الديمقراطية ان يعمل معاً . على العلم ان يرشد السياسة والحكم ، الى ما فيه توفير الأحوال التي تعز من كرامة الانسان ، وعلى السياسة ان يأخذوا من العلم ، ويضمنوا بوسائلهم وأساليبهم ان ثماره لاتضيع جزافاً ولا يساء استعمالها في حياة الشعوب . واذا كانت السياسة في أثناء الحرب خادمة الخطة الحربية ، والعلم خادمها معاً ، فالرجاء ان تغدو السياسة بعد الحرب خادمة العلم في سبيل المصلحة العامة . اذ لا بد ان يكون العالم بعد الحرب جريحاً كسيحاً ، تشتد فيه الفاقة ، وتعظم الحاجة ، وهناك المجال الواسع لا يدي العلم الآسية وقدرة العلم على الانشاء المنطوية في الفنون الميكانيكية والصناعية . ولا بد من الاعتراف بأن حاجات الحياة هي جزء من حقوق الانسان فالجوع يسخر الانسان وكذلك السيف . فالقضاء عليهما ينفخ معنى وحياة في ذلك الحق الانساني الاصيل الذي بدأ به بيان حقوق الانسان الاميري « حق الحياة ونشدان السعادة » ثم ان الديمقراطية باعلامها من شأن العقل ، تعلي من شأن التعاون وهو أساس السلام . والعلم الآن واقع تحت ظل غيمة قائمة ، لأن المخترعات والمستنبطات الميكانيكية ، هي سبب هذه المآسي التي تجرّها الحرب في ذيلها . ولكن العلم نفسه لا يخدم اليه الحرب دون اليه السلام . ان العلم يعطينا بيد الاسمدة ويبد أخرى المفرقات . يجهزنا من ناحية بالأشعة السينية ووسائل الجراحة والمخدرات الطبية ومن ناحية أخرى بالمدافع الرشاشة ، والغاز الخانق والمغيات . ولكن ما يجهزنا به العلم لأعمال السلام يفوق أضعاف أضعاف ما يجهزنا به لأعمال الحرب . فالتفجرات تستعمل في الحرب للهدم والقتل . ولكنها تستعمل في السلم لحفر الانفاق وشق الترع وفتح المحاجر . والصلب لا يستعمل في صنع الاسنة والرماح وحسب ، بل يستعمل كذلك في صنع المحاريث وقضبان سكك الحديد والسيارات والحصادات ومئات من الادوات اللازمة في الصناعة والزراعة والتجارة

ولكن قوة الانسان سبقت حكمته . والعلاج تنقيف العقل ، وتمكينه من السيطرة على الشهوات . فالعلم لم يغير رغبات الانسان وشهواته بل مهّد له طريق تنفيذها . فاذا لم تصقل وتخضع لنواهي العقل ، وإذا لم يحكم الاتزان بينها وبين ما يعليه العقل ، أفلتت ، واتخذت من ما تي

العقل سلاحاً تدمر به الحضارة . وإن أزعج ان التشقّف بأساليب العلم الصحيح الحرّ، مفض بعد طول الممارسة ، الى مهيع الحكمة والرشاد
ثم ان حقائق العلم وثمار العلم ، لا تميز بين الاجناس والعقائد والمذاهب الاجتماعية .
فالكلينا تشفي المصاب بالبرداء سواء أبيض كان أم أسود، وهندياً أم أوروبياً ، وشيوعياً
أم محافظاً، وقسيس كنيسة أم حاخام كنيس أم شيخ جامع
وكما ان العلم لا يميز هذا التمييز بين الناس ، فجميع الشعوب اشتركت في بناء صرحه .
وكل دخل هيكله وفي يده قربانه . من المصريين الاقدمين والاشوريين والكلدانين الى العرب
والهنود الى اليونان والاطليان والالمان والانكليز والفرنسيين والأميركيين وغيرهم . فالعلم في
الواقع هو الجامعة العالمية الكبرى . وهو بهذا الفهم ، يجب ان يكون معواناً للديمقراطية ،
في نضالها لتحقيق عالم أفضل من العالم الذي نعيش فيه

دستور العلم الدولي

- وفي الختام اسمحوا لي أن اتلو عليكم « دستور العلم الدولي » كما وضعه « مجمع تقدم العلوم
البريطاني » وأقره اعضاؤه في مؤتمهم المنعقد في لندن في سبتمبر من سنة ١٩٤١
- ١ — حرية التعلم ، وفرصة التعليم ، والقدرة على الفهم ، لا غنى عنها في توسيع نطاق
المعرفة ، ونحن العلماء نقول ان التضحية بها تقضي الى اهدار كرامة الحياة البشرية
 - ٢ — الجماعات تعتمد في بقائها وتقدمها على معرفتها أنفسها وخواص الأشياء في العالم
الذي يحيط بها
 - ٣ — جميع الأمم وجميع الطبقات أمدت أيادي الى المعرفة وطرق استعمال الموارد
الطبيعية والى فهم تأثيرها في الارتقاء البشري
 - ٤ — المبادئ الاساسية في العلم تعتمد على الاستقلال مقترناً بالتعاون ، وتتأثر بحاجات
الانسانية السائرة الى الامام
 - ٥ — ان رجال العلم هم أمناء كل جيل على ما يرثه من المعارف الطبيعية . فيتعين عليهم
ان يرعوا هذا الارث وان يضيفوا اليه ، بالصيانة الآمنة وخدمة المثل العالية
 - ٦ — جميع طوائف المشتغلين بالعلم اخوان في جامعة العلم العامة ، وهذه الجامعة نطاقها
الأرض قاطبة ، وكشف الحقيقة غرضها الاسمي
 - ٧ — إن الماضي في البحث العلمي يقتضي حرية عقلية وتبادلاً دولياً لا قيد لهما ، ولا
يتزعزع الا في حضن الحياة المتعدنة الحرة

نفت روسيا

وحاجة هتلر

في اليوم الثالث من شهر اكتوبر سنة ١٩٤١ ألقى هتلر خطبته التي أعلن فيها « ان العدو في الشرق خراً صريعاً ولن تقوم له قائمة ». واستشرف المستقبل فقال ، وهو أصبح قولاً « وانما أمامنا مشكلة واحدة هي مشكلة النقل ». ولو أضاف لفظ « النفط » الى هذه العبارة ، لكل وصف أكبر مشكلة يعانيها ، لأن النقل يعتمد على النفط ، ولا بدّ للنفط أن وُجد من أن ينقل

قد تختلف الآراء في هل الحاجة الى النفط كانت أقوى العوامل التي حمت هتلر على مهاجمة روسيا . أما وقد انقضت سنة وخمسة أشهر على بدء هذا الهجوم فليست ثمة ريب في دوائر معظم الخبراء ، في ان حاجة هتلر الى نفط القوقاز غدت عظيمة . فثله كمثل الكيمياء القديم الذي استهواه تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فأنفق كل ما يملكه من ذهب في ذلك نحمره ولم ينجح التحويل

ان مصادر النفط الطبيعي والمصنوع ، الخاضعة لهتلر ، تخرج من عشرة ملايين طن الى اثني عشر مليون طن في السنة . وهذه الأرقام تشمل ما يستخرج من النفط الطبيعي في أوروبا الخاضعة لألمانيا (باستثناء ميكوب في شمال القوقاز الغربي وقد خرب الروس منابعها وفي أحدث الروايات أن إحدى الآبار رمت وأوشكت أن تنتج نخرتها العصابات الروسية) وهو ستة ملايين طن ، وأربعة ملايين طن من النفط المصنوع ، ومليوناً طناً من الأعواض . وأوروبا الهتلرية كانت تنفق قبل الحرب في أغراض السلام — من نقل وصناعة وما أشبه — عشرين مليون طن ، فقيّد هذا الاستهلاك تقييداً دقيقاً . ومع ذلك فأقل ما يجب أن يقسم لها لأغراض غير حربية محض لا يقل عن ثمانية ملايين طن في حال ما . فاذا نقص عن هذا تأثرت بذلك الصناعة والزراعة تأثراً قد يوهن الاداة الحربية الألمانية

فيبقى اذن من مليوني طن الى أربعة ملايين طن من النفط متاحة للأعمال الحربية في جميع الميادين . وقد كانت الحملات الخاطفة التي شنّها الالمان في مراحل الحرب الاولى ، قبل

إلهجوم على روسيا ، لا تستنفد كثيراً من النفط ولا سيما لأنّ مقادير غير يسيرة اخذت من مخزون البلدان المغلوبة . ولكنّ ما يستنفده القتال المستمرّ — على تفاوت في الشدة — في روسيا ، بغير أن يصيب الألمان مخزوناً يذكر يستولون عليه ، حتم على ألمانيا أن تعتمد الى استنفاد بعض المخزون فيها . ومما لا ريب فيه ان موارد النفط جميعاً في القارة الأوروبية لا تكفي لمعدل الاستهلاك . ويقول الخبير فردريك فيليب هلن^(١) إنه على الرغم من تراخي القتال في روسيا في أثناء الشتاء الماضي ، فإن هتلر لم يبدأ فصل القتال هذه السنة بأكثر من مخزون يتفاوت بين ثلاثة ملايين طن وخمسة ملايين وهو لا يكفي لقتال على نطاق القتال الروسي في السنة الماضية أكثر من خمسة أشهر أو ستة . اما الانتاج السائر وهو مليون طن على المعدل في الشهر ، فسبعة أعشاره يجب أن تحوّل الى الاستهلاك الأهلي في الصناعة والزراعة والنقل وما أشبه — وهو أقل مقدار تحتاج اليه — فلا يبقى متاحاً من هذا الانتاج سوى ثلاثمائة الف طن للاعمال الحربية . وقد قال هذا الكاتب — في مقال نشر في المجلة المشار اليها في عدد يونيو ١٩٤٢^(٢) ومن المرجح انه كتب على أقرب تقدير في ابريل — ما نصه : « فاذا لم يسيطر هتلر على القوقاس في فترة أولها أغسطس وآخرها اكتوبر ١٩٤٢ فسيعجز عن شن الحرب الهجومية على النوال الذي شهدناه خلال السنوات الثلاث الماضية ، فيفلت زمام الحرب من يديه . واذا فاز بذلك منع عن جيوش روسيا ، وكيانها الاقتصادي ، الوقود أو أكبر جانب من الوقود الذي تحتاج اليه . ومع ذلك فإن الاستيلاء وحده لا يكفي ، لأن الخطة التي اتبعها الروس ، في تخريب كل ما يضطرون الى الجلاء عنه ، يقتضي منه أن يبدأ ثانية في حفر الآبار ، وانشاء معدات التقطير و « التحطيم » ومستودعات التخزين ، وتخصيص المركبات أو السفن اللازمة للنقل من المراكز الصناعية الى ميادين القتال . وتحقيق كل هذا يقتضي منه نقل المنشآت والمعدات من فرنسا وهولندا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا الى القوقاس ، أو نقل النفط الخام بالسفن البحرية والنهرية والقطارات الى مصانع التقطير الأوروبية التي تكاد تكون على الأكثر واقفة عن العمل الآن . ولكن هذا يشمل مشاق مستمرة في النقل ، وتعرضاً لخطر القذف الجوي . واذا حلت جميع هذه المشكلات على الوجه الأولي ، فلا يحتمل ان يكون النفط متاحاً لهتلر قبل سنة ١٩٤٣ وهي السنة التي ينتظر فيها ان تبلغ قوة الدول المتحدة أوجها أو تشرف عليه

(١) مجلة الانتلكت منثلي الاميركية وقد كان على صلة وثيقة بصناعات النفط في ألمانيا وروسيا وبريطانيا وزار مناطق النفط في اوربا والشرق الاوسط وشمال افريقية زيارات خبير (٢) واليه استندنا في هذا الفصل

النפט الروسي

بلغ مقدار المستخرج من النفط في روسيا سنة ١٩٤٠ نحو أربعة وثلاثين مليون طن وهو قرابة ١١ في المائة من المستخرج في جميع أقطار الأرض. ويبلغ المستخرج من آبار القوقاس نحو ٨٥ في المائة من المجموع وعلى وجه خاص في منطقة باكو حيث يبلغ النفط الخام المستخرج أربعة وعشرين مليون طن. وهناك كذلك منطقتا ميكوب وجروزي، ومقدار النفط المستخرج منهما بلغ حوالي خمسة ملايين طن تصلح خاصة لاستخراج مواد التزيت الجيدة (مواد التشحيم أو المزلّسات Lubricants)^(١). وقد كشف في سنة ١٩٣٥ منطقة نفط بين جبال الاورال والقولجا، دُعيت «باكو الثانية» وإن كان المستخرج منها لم يزد على مليوني طن في السنة عندما هجم هتلر على روسيا. وتشير الأنباء التي يصحّ الاعتماد عليها الى ان مصانع كبيرة للتقطير أنشئت هناك وتكفي لتقطير مقدار من البنزين يبلغ ١٠ الى ١٤ في المائة من انتاج البنزين كله في روسيا

غير أن تطبيق النظام الاشتراكي على المزارع الروسية، والتوسع في انشاء المصانع الحديثة، واعداد جيش روسي كبير حديث المعدات والسلاح، قفز بروسيا الى المقام الثاني بين الدول التي تستهلك النفط ومشتقاته. فقبل عشر سنوات او نحوها كانت روسيا، تصدر من نفطها اربعة ملايين طن الى ستة ملايين طن كل سنة فنقص ذلك الى مليون طن او اقل قليلاً في سنة ١٩٣٨ ثم وقف الإصدار الا قليلاً في سنة ١٩٣٩ والنصف الاول من سنة ١٩٤٠ لأن روسيا كانت تحتاج الى نفطها

واعتماد الصناعة الروسية والزراعة الروسية والقوة الحربية الروسية على النفط ومشتقاته، ينزل الطرق التي انشأها الروس لنقل هذه المواد من مناطق القوقاس الى الشمال، في المقام الاول بين الأهداف الحربية في روسيا. ولو استطاع الالمان ان يشقوا طريقهم الى استراخان او الى ستالينجراد، بعد دخولهم روستوف في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤١ لحاق الخطر بروسيا. نعم كان في وسعها حينئذ ان تعتمد على المخزون من الوقود وما يستخرج في باكو الثانية وغيرها من المناطق التي لا يكثر فيها استخراج النفط، ولردّ شبح الخطر أمداً قصيراً، قد لا يزيد على بضعة اشهر، ولتحوّلت الحرب في روسيا بعد ذلك من حرب حديثة، الى حرب عصابات على الطريقة الصينية في السنوات الخمس الاولى من الحرب ضدّ اليابان. ولو نجح الالمان في احتلال منطقة آبار جروزي لأصابوا فيها مقادير كبيرة من النفط تصلح لاستخراج مواد

(١) الملس في محيط المحيط «عند الاطباء دواء ينسبط على سطح عضو خشن فيستر خشوته ويجعله كأنه أملس» وهذا يقابل تعريف Lubricant في ما يخص السطوح المعدنية كالمجلات في الآلات الحديثة

التزيت . واذا كان اخراج الالمان من روستوف في السنة الماضية ، هزيمة محدودة ، من الناحية الحربية فإنه كان هزيمة اكبر من ناحية الوقود . فلا الالمان اصابوا ما يحتاجون اليه . ولا نزعوا من الروس ما يحتاجون اليه ، وأُتيحت الفرصة لروسيا ، ملء مستودعاتها والتوسع في ما يستخرج من المناطق الاخرى خلال أشهر الشتاء والربيع ١٩٤١ — ١٩٤٢ . وفي هذه السنة لم يكن نصيب الالمان من النجاح الحقيقي في هذه الناحية كبيراً . فقد أخذوا آبار ميكوب وهي أقل آبار القوقاس انتاجاً . ومع ذلك لايزالون عاجزين عن الانتفاع بقطرة واحدة منها . وما زالوا مصدودين عن آبار جروزني . واما باكو فبعيدة عن متناولهم الآن . نعم إنهم اقتربوا من ستالنجراد واستولوا على جزء منها . ولكن يلوح ان اقترابهم في البدء لم يؤثر في قدرة الروس على استعمال الثولجا طريقاً لنقل النفط من الجنوب شمالاً ، وعندما اصبح الالمان مشرفين من بعض المواقع على طريق الثولجا وراء المدينة ، كان النهر قد أشرف على التجمد ، ومنفعته للروس من هذه الناحية قد نقصت . وفي خلال هذه الاعمال الحربية الواسعة التي بدأوها في ٢٦ يونيو أنفق الالمان مقادير وافرة من النفط ومشتقاته بغير ان يصيبوا عوضاً يذكر عنها حتى الآن

نقط المانيا

يميل « هلن » الى الرأي بأن المانيا كانت قد اخترنت من النفط غير الاوربي ومشتقاته عندما بدأت الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، ما يتفاوت بين خمسة ملايين وسبعة ملايين طن متري . وكانت المانيا قد استوردت هذا النفط خلال سنوات وزادت مقادير ما تستورده زيادة كبيرة قبل نشوب الحرب . وكانت الحاجة الاهلية في المانيا الى النفط تكفي مما يستخرج من النفط الخام في بلادها ، ومما يصنع بالتركيب الكيميائي ، ومن بعض ما يستورد . أما المستخرج من النفط الخام في قارة اوربا ما عدا روسيا فيبلغ — مع شيء من التحفظ — ستة ملايين طن كل سنة ، منها أربعة ملايين تستخرج من آبار رومانيا و ٦٠٠ الف طن من آبار في المانيا و ٥٠٠ الف طن من آبار في بولونيا و ٣٠٠ الف طن من آبار في البانيا و ٢٠٠ الف طن من آبار في هنغاريا و ٤٠٠ الف طن من آبار في النمسا واستونيا والازاس وتشيكوسلوفاكيا وبلغ المصنوع من النفط الصناعي مليوناً ونصف مليون من الأطنان في سنة ١٩٣٨ وكانت المصانع التي تصنع هذا المقدار تتفاوت من خمسة وعشرين الى خمسة وثلاثين وهي متفرقة . وكانت هذه المصانع قبل الحرب قد أنشئت على الأكثر في منطقة الفحم الألمانية في الغرب ومنطقة الفحم اللين (اللجنيت) الى المانيا الوسطى . أما بعد نشوب الحرب فقد

أُنشئت مصانع لهذا الغرض في الولايات الشرقية وعلى ساحل بحر بلطيق وفي تشيكوسلوفاكيا وقد استحدثت المانيا طريقتين لصناعة النفط من الفحم ، بغير نظر الى نفقة الاستخراج وتعرف إحداها بطريقة برجيسوس والثانية بطريقة « فشر — ترويش ». أما الأولى فتحوّل الفحم أو اللجنيت الى نفط مركّب خام ثم تستخرج منه المشتقات . أما النفط المركب الخام في الثانية فيصلح لاستخراج المشتقات منه وكذلك مواد التزيت . والاصناف جيدة بوجه عام وقد تمكّنت المانيا من زيادة المصنوع من النفط المركّب بالاساليب الكيميائية ، من ١٠٠ ألف طن في السنة (١٩٣٣) الى مليون طن ونصف مليون طن في السنة (١٩٣٨) . والغالب عند خبراء النفط ان ما يصنع من النفط المركّب في المانيا وأوربا الخاضعة لها قريب جداً من أربعة ملايين طن في السنة

فلما نشبت الحرب ، انقطع الوارد الى المانيا من النفط ، إلا ما كان يحميها من رومانيا وروسيا . وكانت روسيا قبل نشوب الحرب تصدر الى المانيا بضعة مائة ألف طن من البنزين ومواد التزيت ، وكانت تنقل بالسفن من البحر الأسود خلال الدردنيل والبحر المتوسط الى الثغور الألمانية على ساحلها الشمالي . فلما نشبت الحرب رأت روسيا انها لا تستطيع أن ترسل اليها النفط بالسفن . ففي خلال الفترة التي انقضت بين نشوب الحرب وهجوم المانيا على روسيا ، كانت روسيا ترسل الى المانيا ما ترسله من النفط بالسفن في البحر الأسود الى ثغور رومانيا وبلغاريا ثم ينقل بالسفن في نهر الدانوب ، أو بسكك الحديد . وما أرسل رأساً من روسيا الى المانيا بسكك الحديد كان يسيراً جداً ، وكان لابد من تحويله عند الحدود البولونية من قطار الى قطار آخر لاختلاف عرض السكك الحديد في البلدين . ومن الجائز ان يستعمل الألمان الآن شبكة الأقنية التي أنشأها الروس لوصل البحر الأسود ببحر بلطيق

أما ما يستخرج من النفط في رومانيا فقد نقص نقصاً مطرداً حتى بلغ سنة ملايين طن في السنة (١٩٣٨) ومن هذا المقدار تصدر رومانيا أربعة ملايين طن من المشتقات وتستبقى مليونين لاستهلاكها الداخلي . وهي تستهلك هذا المقدار الكبير ، مع قلة الطرق والمركبات فيها ، لأنها تعتمد على النفط في قطاراتها وصناعاتها والتدفئة والاضاءة

وكانت رومانيا — الى عهد انهيار فرنسا — ترسل نفطها بجزراً في البحر المتوسط الى موانئ أوروبا الغربية . ولا يحتمل ان إيطاليا كانت تتلقى منه أكثر من بضعة مائة ألف طن والمانيا مليوناً أو أكثر . فلما دخلت إيطاليا الحرب في ١٠ يوليو ١٩٤٠ أصبح الصادر الروماني محبوساً على المحور دون غيره ، ولكن مشكلة نقله — وقد سُدَّ طريق البحر المتوسط — كانت معقدة . فالدانوب لا يتسع لنقل مقدار يزيد على مليون ونصف مليون

من الأطنان . والباقي يجب أن ينقل بسكك الحديد الى مختلف أنحاء القارة الاوربية . والنقل بسكك الحديد مرهق ارهاقاً لا يتسع المجال في هذا المقال لتفصيله

وقد أصابت المانيا في البلدان المحتلة ، مقادير من النفط منها ما يستخرج من الآبار في البلاد التي استولت عليها أو دخلت في نطاقها ، ومنها ما كان مخزوناً فيها . ففي غربي بولونيا آبار تخرج ١٥٠ ألف طن في السنة (يستخرج منها من ١٥ الى ٢٠ في المائة من مواد التزيت) وفي شرقي بولونيا آبار تخرج ٣٥٠ ألف طن في السنة وهذه آلت اليهم بعد الهجوم على روسيا . وفي الازراس آبار تخرج ٧٥ ألف طن في السنة . وفي هنغاريا والباينا آبار تخرج نحو ٤٠٠ ألف طن في السنة . وفي استونيا آبار تخرج نحو ١٠٠ ألف طن في السنة والمجموع أكثر من مليون طن قليلاً . أما الخزون الذي أصابوه في الدنمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا فيبلغ مليوني طن من النفط الخام على المرجح

وقد زاد المتاح لألمانيا بعد دخول إيطاليا الحرب ، بما كان مخزوناً في إيطاليا (وهو يبلغ ٢ ½ — ٣ ملايين طن) وما يستخرج من آبار البانيا . ولكن هذه الفائدة كانت قصيرة الأمد . لأن إيطاليا تحتاج الى مقادير كبيرة من النفط ومشتقاته في صناعاتها وادائها الحربية . والأسطول الإيطالي وحده كان يستهلك نحو مليون طن في السنة في مناوراته ابان السلام . وقد يكون في هذه الحقيقة بعض تفسير لسكون الاسطول الإيطالي خلال الحرب

مواد التزيت (التشحيم)

ان ما يستهلكه المدنيون من مواد التزيت قلما يستطيع خفضه . فحيث تدور العجلات لابداً من هذه المواد . والا جفت السطوح المعدنية وعجزت عن الدوران أي إن سطوحها يجب ان تلمس . وارهاق الآلات الميكانيكية في اثناء الحرب ، يجعل الاقتصاد في مواد التزيت مستحيلاً . وكانت المانيا تستهلك من هذه المواد ٦٠٠ ألف طن في السنة قبل الحرب . ومنذ ما نشبت الحرب زاد المستهلك وكان لابداً من الاعتماد على الخزون في سدّ النقص . لأن استخراج هذه المواد او استخراج الجيد منها في اوربا محدود . فلا النفط الطبيعي الألماني ولا النفط الروماني يصلحان لهذا . اما النفط المركّب بالكيمياء في المانيا على طريقة « فشر ترويش » فصالح لاستخراج مواد التزيت الجيدة منه . ولكن المقادير المستخرجة قليلة . ومن المجمع عليه بين خبراء النفط والصناعة ان مواد التزيت الجيدة المستخرجة من النفط الروسي والنفط الاميركي هي وحدها التي تصلح لمواجهة مطالب الصناعة الحربية والحرب . ومع ان ما يستهلك من هذه المواد لا يزيد على ٣ في المائة من المقادير المستهلكة من النفط ومشتقاته الأخرى ، فالمشكلة التي تواجهها المانيا من هذه

الناحية خطيرة ، اذ لا سبيل الى تعويض المستهلك تعويضاً وافياً من مصادر أوروبية . ولذلك يستطيع الخبراء ان يصدقوا ان الدبابات الالمانية في بعض ساحات الميدان الروسي عجزت عن المضي ، لتجمد مواد التزيت فيها . وقد يكون في هذا اشارة الى ما بدأت تعانيه المانيا من ناحية مواد التزيت الجيدة

حاجة هتلر

في معارك بولونيا والنرويج وفرنسا والبلقان لم تبد حاجة هتلر الى الأخذ من مخزون النفط عنده . فالمعارك كانت قصيرة الأمد حاسمة والفترات بينها كانت طويلة كافية لتعويض ما يستهلك فيها من هذه المواد ، علاوة على ما أخذ من مخزون في البلاد المفتوحة . والواقع ان ما أخذ من مخزون هذه البلاد ، زاد المخزون في المانيا . أما القتال في أفريقية والهجوم الجوي على بريطانيا ، فلم يستنفد كثيراً من النفط ومشتقاته . ولكن حاجة هتلر الى النفط بدأت عند ما بدأ الهجوم على روسيا . هنا ميدان طوله ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ ميل تدور المعارك فيه على الأرض وفي الجو . وملحقاته ثلاثة بحار هي البحر الأسود وبحر بلطيق والمحيط المتجمد الشمالي . ومنذ ما بدأت الحملة الالمانية في روسيا لم تنشر الأرقام الخاصة باستهلاك النفط . ولا يجدينا ان نعلم ما تنفقه دبابة أو طائرة أو سيارة من الوقود في الساعة أو اليوم ولا يجدينا ان نعلم ان الفرقة الالمانية المدرعة تشمل أربع مائة دبابة متوسطة وخفيفة و ٣٣٠٠ سيارة ، اذ لم نعلم مدى حركتها واشتراتها في القتال . والخبراء الحربيون قد اختلفت آراؤهم في ما انفقته الجيوش الالمانية من النفط ومشتقاته في معركة بولونيا التي دامت سبعة عشر يوماً . ومنهم من يجعله ٣٠٠ ألف طن ومنهم من يجعله ٧٥٠ ألف طن . وما استهلك في معركة فرنسا بلغ ضعف ما استهلك في بولونيا . ويقدر ما استهلكه سلاح الطيران الالمانى من بنزين الطيران الطيار المكرر ، خلال شهر من النشاط العظيم بخمسين ألف طن الى مائة ألف طن . فخمسة مائة قاذفة تطير كل يوم اربع ساعات على المعدل وتستهلك طنّاً الى طن ونصف في كل ساعة طيران ، تستنفد في شهر من ستين ألف طن الى تسعين ألف طن من البنزين الجيد ويقول « هِلن » انه لا يظن انه مبالغ في تقديره ان استهلاك الالمان للنفط في روسيا بلغ مليون طن في الشهر بين ٢٢ يونيو وأوائل ديسمبر من السنة الماضية . ومن المحتمل في رأيه ان هذا المقدار هبط الى نحو ٦٠٠ ألف طن في الشهر بين ديسمبر ١٩٤١ وابريل ١٩٤٢ فعلى أساس الحقائق التي سبق ايرادها وتقدير « هِلن » للاستهلاك الشهري في الصناعة والزراعة والنقل وفي الأعمال الحربية نفسها يلوح ان اداة الحرب الالمانية قد أشرفت على منطقة الخطر في ما يخص تموينها بالنفط ومشتقاته

بعد الحرب

كيف تعالج المشكلات العالمية

للدكتور تشارلز وطسن
رئيس الجامعة الأميركية بالقاهرة (١)

إن غرضي استيضاح بعض المشاق والمشكلات ، التي يتعين على الظافرين والمقهورين ، مواجهتها عند ما تنتهي الحرب ، والاشارة الى ما يجب تدبيره لمعالجتها . والبحث قائم على فرضين اولهما ان الدول المتحدة مستحز ظفراً كاملاً حاسماً . والثاني ان هذه الدول ستمضي بعد الظفر ، في طريق التعاون الوثيق في مواجهة مشكلات السلام ومعالجتها ، كما واجهت مشكلات الحرب صفياً واحداً . وهذا فرض كبير مع ان احتمال التعاون بعد هذه الحرب اعظم من التعاون الذي حقق بعد الحرب العالمية الأولى . وليس يغرب عن بلي ان رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ارتبطا بالمادة الثامنة من « دستور المحيط الاطلسي » ولكن قراراً من السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة ، لا يعدل قانوناً يقره الكونغرس . وبرغم الانقلاب في الرأي العام الأميركي لا يصح ان يقال ان « بيل هاربر » أقامت شاهداً دائماً على قبر العزلة الأميركية . ومع ان وكيل الرأسة الأميركية « ولاس » وغيره من قادة الرأي يؤلون الدعوة الى وجوب التعاون الوثيق بعد الحرب ، وبحث المشكلات التي تحتل مواجهتها تأهباً لمعالجتها ، ويعربون عن ضرورة نهوض الولايات المتحدة بنصيبها في الانشاء والاصلاح ، يحسن بنا أن نذكر من قبيل الحيلة ، ان هذا التعاون يجب ان يبقى فرضاً الآن . فالحفاظة على القوات الحربية اللازمة لحفظ السلام والامن ، واتفاق النفقات الطائلة على الاغاثة والتعمير ، والاهتمام بشؤون بلدان نائية — بعد زوال الخطر العام — والتسليم بخفض حواجز الجمارك وفتح الأسواق وتوزيع المواد الخام على أساس عادل ، واكتفاء العمال بخفض مستوى عيشهم في سبيل عون بئذل لأغراب عنهم — (وقد أشار رئيس أساقفة كنتربري الى ذلك بقوله : « ان طوائف مميزة من شعبنا وبعض طبقات العمال عليها ان ترضى بخفض مستوى المعيشة لكي يتاح توزيع خيرات الأرض بين الأمم وبين الناس في كل أمة توزيعاً أقرب الى المساواة ») — جميع هذه المسائل هي قواعد التعاون بعد الحرب مفرغة في قالب عملي

المشكلات والمهام

على أساس هذين الفرضين ، يجدر بنا ان نلقي الآن نظرة عامة فاحصة على المهام التي يتعين علينا ان نواجهها حالاً بعدما تضع الحرب أوزارها

١ — ﴿ نزع السلاح وتسريح الجيوش ﴾ من الواضح ان الحرب لا تعدُّ منتهيةً أنتهاءً يُطمأنُّ إليه ، إلا بعد القضاء على معدات العدو الحربية أو مصادرتها . وهذا أصدق ما يكون على هذه الحرب لأنها حرب آلات ومعدات . ونزع السلاح مهمة لا بدَّ من وقوعها على كاهل الجيوش الظافرة والهيئات المشرفة عليها . ولا بدَّ من انجاز هذه المهمة على أوفى وجه ، لئلا يقع السلاح في أيدي جماعات من الثوار ، فتسده الى من كان مستبداً بها يسومها الحرمان والعذاب . وتسريح الجيوش يتبع نزع السلاح ولا بدَّ من ان يصبح مشكلة تقتضي الحلَّ السريع ، بعيد ما تنتهي الحرب . ومن المرجح ان التسريح يجب ان يكون منظماً متدرجاً لكي لا يغدو ألوف من الجنود خطراً على الأراضي التي يكونون فيها او يحوزونها

٢ — ﴿ التعطل عن العمل ﴾ إن مشكلة التعطل عن العمل التي يحتمل نشوؤها عند عقد الصلح تكاد تروع التأمل . تصوّر الانصراف الكليّ الى الانتاج الحربي الان في الدول المحاربة ، ثم تصوّر وقوف الوف وعشرات الألوف من المعامل عن العمل ، فتنتطلق ملايين من عمالها في الشوارع ، جيشاً لا عمل له ولا مرتزق ، وقد يواجه الفاقة او الموت جوعاً . ومهما تكن الحكومات نافذة البصر ، في إعداد الخطط لتحويل صناعات الحرب الى صناعات السلام ، فلا مفرّ من انقضاء أسابيع وأشهر ، قبل ان يتمّ التحويل . ويضاف الى هذا ما يحيط بمسائل الأسواق والمال اللازم لتجديد الآلات ، من غموض واضطراب . وفي بلدان كثيرة ، تتعقد المشكلة بوجود نساء تعودن الانتاج والكسب في أثناء الحرب ، فهل يجب عليهنّ أن يعدن الى البيوت وهل يطقن هذا ؟ وقد أنفقت ألوف الملايين من الجنيهات على الحرب ، ولا مفرّ من اتفاق ملايين أخرى ، في بلدان أوروبا ، للتعمير وانشاء صناعات السلام قبل أن تستطيع هذه الصناعات أن تشارك في حلّ مشكلة التعطل عن العمل أو تخفيف وطأتها

٣ — ﴿ محاكمة جناة الحرب والضبط في الانتقام ﴾ قد يكون من وراء الطاقة البشرية أن ننتظر من المستبدين بهم ، الامتناع عن أعمال الانتقام من رجال اشتركوا خلال الحرب ، اشتراكاً مباشراً أو غير مباشر ، في الفظائع وقتل الناس قتلاً بالجملة واعداد الرهائن . وقد وجه أسقف تشستر النظر الى وجوب تدبير ما يلزم لمنع أعمال الانتقام الفردية هذه ، وذلك على أثر زيارة له الى السويد . قال « ماذا يحدث متى وصلت الأنباء الى النرويج وهولندا وبلجيكا وبوهيميا وموراخيا ويوغسلافيا ، بأن هتلر ورجال عصبته قد سقطوا ؟ يكاد يكون

حققاً قيام ثورات على ثلاث طبقات من الأعداء — الجيش الألماني والجستابو والجماعة المعروفة بوصف كويزلنج — إذا لم تقبض على زمام الحكم أيد تملك السلطان الوافي». ولا بد من القول بأن عزم الدول المتحدة على محاكمة المسؤولين عن الغطاء، متى أصبح ذلك متاحاً لها، خطة لا بد من إزاحتها أو سماعها ممكنة لسببين. أولهما: أنها قد تحمل النازي على ضبط النفس إذا وثقوا بأننا سنبحث عنهم لمعاقبتهم ولا سيما إذا كانت عقوبة الإعدام بين العقوبات المقترحة. ومما يبعث على الارتياح أن نطالع في بعض الوثائق الرسمية أن هذه المحاكمات ستقام وأن سجلات يصح الاعتماد عليها تعد الآن وكذلك الأدلة الوافية على كل تهمة. وثانيهما: أنها قد تساعد على الحد من أعمال الانتقام الفردية، إذا علم الناس أن هناك محاكمات قانونية تتولاها هيئات قضائية منظمة

٤ — * التدبير ضد الجوع والمرض * اليكم عبارة وردت في تقرير لجنة أنشأها وقف كرينجي

« أن الدلائل تدل على أن المرض في هذه الحرب كما في الحروب السابقة سيكون أفك بالناس من الأسلحة التي اخترعها الإنسان. فالمدافع ستصمت عند ما يصدر الأمر بوقف النار، ولكن هب المرض يمضي ملتصقاً الضحايا ما دامت الأحوال المضطربة قائمة والضحايا هناك. وهناك أربعة أحوال تصعب الحرب عامة وتساعد على نشر الوباء. وهي أولاً — سوء التغذية والجوع. وثانياً — ترحيل طوائف كبيرة من الناس من مكان إلى مكان. وثالثاً — قلة وسائل العلاج من مستشفيات وأطباء ومواد صحية وعقاقير. ورابعاً — اضطراب الحياة الاجتماعية المنظمة »

ثم جاء في التقرير ما يلي : —

« أن قلة الطعام التي بدأ أثرها يظهر في أوروبا الآن ستتفاقم شهراً بعد شهر. والجوع أمر مألوف في البلدان المحتلة. ولا ريب في أنه سيفضي إلى أمراض سوء التغذية وفقاً لقلّة المواد الواقية. وأخيراً متى انهار صرح الحياة الاجتماعية المنظمة غداً الموت جوعاً، أمراً لا مفر منه. فن أخطر المشكلات التي لا بد من مواجهتها بعد الحرب، تجهيز أوروبا (وربما غيرها) حالاً بما يلزم لها من مواد للطعام »

ويذهب كتاب التقرير إلى أن الاعتماد في علاج هذه المشكلة، على الصليب الأحمر وغيره من الهيئات المتطوعة لا يكفي. لأن ما تقتضيه الحال من هذا القبيل لا يفي به إلا بمبالغ ضخمة من المال كالمبالغ التي ألفنا اتفاقها في أثناء الحرب، ولا بد من هيئة تعيّن بها الدول المتحدة كاهيئات التي تشرف الآن على نواحي الحرب، لتمتولى على وجه وافي توزيع العقاقير والمصنوع والطعام والفيتامين والدهن وغيرها. ومن ستة أشهر أذاعت هيئة مسؤولية^(١) في لندن أن عدد الوفيات في أئتنا بلغ ثمانية أضعاف المعدل السنوي، وأن نصف سكان المدينة يأكلون في مطاعم عامة طعاماً لا يحتوي إلا على خمس أقل غذاء لازم للصحة. وأن نقص المواد الغذائية

في بلجيكا يبلغ ٦٠ في المائة للمراهقين والكبار و ٥٠ في المائة للحوامل ، وإن الهررة تباع في الخفاء (البورصة السوداء) كل هرة بمائة فرنك أو أكثر

٥ — إعادة الشعوب المرحلة الى مواطنها * قد تتعذر الاحاطة بسعة نطاق هذه المعضلة وتشعبها . وحسي هنا أن أشير الى أشهر المناطق التي رُحلت عنها ملايين من الناس وقد تجب اعادتهم اليها . فالاضطراب الناشئ عن هذه الحالة في الصين لا يكاد يحصره بحث . فنحن نعلم ان نحو ثلاثين مليوناً من الصينيين هجروا مواطنهم فراراً من الغزو الياباني ، ومنهم من بلغ في هجرته مسافات بعيدة ، فتتعذر عودته . وفي أثناء الحرب الأهلية الاسبانية هجر اسبانيا نحو خمسمائة الف من سكانها الى فرنسا ، وقد هجر المانيا نفسها نحو ٤٠٠ الف من أبنائها فراراً من الظلم النازي ، وفي صيف ١٩٤٠ بلغ عدد المهاجرين الفرنسيين من المنطقة الفرنسية المحتلة الى المنطقة غير المحتلة من خمسة ملايين الى اثني عشر مليوناً ، وقد أعيد كثير منهم ، ولا يزال كثيرون مقيمين . وقد طرد ثمانون الف فرنسي من ولاية اللورين

وفي المانيا الآن بضعة ملايين من العمال الأجانب جيء بهم قسراً أو اغراءً من البلدان المحتلة والتابعة . وما حدث في الأراضي الروسية المحتلة من هذا القبيل تستحيل معرفته الآن وقد تستحيل على الاطلاق . والشككة معقدة بقدر ما هي واسعة النطاق . ان كثيرين قد لا يرغبون في العودة ، وان حكومات كثيرة قد لا تقبل عودة فريق من أبنائها اليها لأنه كان في البلاد أقلية مشاكسة أو لسبب ما غير هذا . ولكن الحكمة تقضي بالشروع في دراسة هذا الموضوع من جميع نواحيه الآن ، وقرار قواعد عامة لتطبيقها حالاً بعد وقف القتال

٦ — السيطرة على المواصلات البرية والبحرية والجوية * كلنا يعلم الآن شيئاً عن السيطرة الحربية على أسباب المواصلات جميعاً وحبس التناح من المكان في السفن والطائرات على النقل الحربي أولاً . وليس ثمّة ريب في أن ما يغرق من السفن الآن سيقبل بعد نهاية الحرب ولكن لا يحتمل ان ينشأ عن ذلك زيادة في السفن والطائرات المتاحة للنقل الأهلي والتجاري لأن نقل الجيوش الممرحة من مناطق القتال الى مواطنها لا بد أن يشغل جانباً كبيراً منها ، ونقل مقادير كبيرة من المأكّل والملبس والأدوية الى المناطق المحتاجة ، جانباً آخر . فلا بد اذاً من استمرار السيطرة الحربية على أسباب المواصلات والنقل فترة ما ، مع تحويلها الى أغراض السلم

٧ — تثبيت النقد * هنا مشكلة لا شك فيما لها من شأن وصلة بخير ملايين وملايين من الناس وهي في حاجة الى دراسة دقيقة وتأهب حكيم ووضع القواعد خلال الحرب لحلها فيستطاع تطبيقها عند ما تنفخ أبواق السلام . فنحن نعلم ان قيمة المارك الالمانى وجميع انواع النقد التي تتصل به وتعتمد عليه إنما هي قيمة وهمية . نعم ان المانيا وفرنسا تمثلان ثروة

مادية كبيرة ولكن العقار فيهما له قيمة وليس للنقد مثلها . فالنقد ورق ولا بد ان تهبط قيمته حتى تتلاشى ، وويل للارملة أو للشيخ الذي يجمع ثروته بالماركات أو الفرنكات . فالحاجة الى انشاء نقد جديد في بلدان الأعداء أو البلدان المحررة من ربة الأعداء على أساس المقايضة ويا ليتة يكون نقداً دولياً على أساس عشري . ولا بد من التشريع تشريعاً حازماً لكف يد المستغل ومعاقبته . وكل هذا يجب أن يكون معداً لإعلانه وتطبيقه حالما تنتهي الحرب

٨ — التريبة والنشر من المهام التي يجب أن توجه اليها عناية خاصة في الأيام التي تلي نهاية الحرب مهمة التريبة والنشر المشروع . فلا بد أن تنطلق بعد الحرب قوى لا هم لها إلا سم عقول الأمم الظافرة أو المقهورة أو المحررة على السواء . وستسند الى المشرفين على توجيه شؤون العالم بعد الحرب يوعات كثيرة خسيصة لاصحة لها . فلا بد أن اذن من اذاعة بيانات رسمية وخطب عامة على شعوب الأرض في هذه الفترة الدقيقة . واننا لنذكر كيف تمكن الرئيس روزفلت والمستر تشرشل في أحوال معينة من تبديد رياح النقد الخاطيء وتعزيز الوحدة وتوجيه الأمم المتحدة توجيهاً سديداً بخطبهما . ولا بد أن تجيء بعد الحرب فترات تشتد فيها الحاجة الى اذاعة بيانات وافية ويجب أن يكون في مستطاع اقطاب العالم اذاعتها . والوقت لا يتسع الآن لتوفية هذه الناحية من البحث

٩ — مهام أخرى وهناك مهام أخرى كثيرة لا بد من معالجتها حالما تضع الحرب أوزارها ولكنها لا تحتاج الى تفصيل الآن وبينها العناية بالآيتام وتدير المسال اللازم للمشروعات التجارية وفي طبيعتها وضع الأركان التي تقوم عليها الهيئة الدولية العالمية . وحسبنا ما تقدم لبيان ميادين الخدمة التي لا بد أن تستأثر بالعناية حالما يعقد الصلح

فترة الانتقال

من المسلم به في جميع الدوائر الآن انه لا بد من فترة انتقال تلي انتهاء القتال وتسبق عقد معاهدة دائمة تقرر فيها الحدود السياسية وقواعد تنظيم الهيئة العالمية الدائمة . واليكم فقرة مقتطفة من تقرير وضعته اللجنة التي عينها معهد كرنيجي للسلم الدولي لبحث تنظيم السلام :

« حالما تنهى الحرب تواجه جماعة الأمم ، مهمتين منفصلتين ولكنهما متفاعلتان ولا بد اذن من التأهب لها قبل ان يحين الحين . هاتان المهمتان تشملان اولاً مشكلة التعمير السياسي والمادي والروحي التي تلي الحرب ورزاياها . وثانياً مشكلة انشاء نظام دولي دائم وهي مشكلة بعيدة الامد » . ثم « كان الرأي بعد الحرب الماضية ان الضرورة تقضي بحفظ ملايين من الرجال البرهين تحت السلاح وباستمرار الحفر البحري الناسي وترك لامم فريسة الاضطراب بينما رجل الدياسة يحاولون في سرعة وشدة حل المشكلات الكبيرة التي لا تحصى »

فكانت النفقة المالية فادحة والعواقب الاجتماعية والدولية أفدح . هذه الطريقة لم تكن وافية في سنة ١٩١٩ وستكون أقل وفاء في مواجهة الحاجات الناشئة عن هذه الحرب»

وثمة عاملان كبيران يقتضيان فترة انتقال قبل إنشاء هيئة عالمية دائمة وتعيين الحدود السياسية في تسوية عامة. اما العامل الأول فإتاحة الوقت الكافي لبحث المسائل المعقدة بحثاً منزهاً ولحمود الشبهوات القومية والعنصرية والشخصية التي تحركها الحرب . ولكن في الوقت نفسه لا يجوز التأخر في معالجة الموضوعات التي تقدم ذكرها وادماجها في تسوية ما. فاذا أهملت فكأننا ألتحنا فرصة لنمو العوامل الفاسدة فتفضي الى شقاء ملايين من الناس وقيام عقبات كأداء في سبيل انشاء الهيئة العالمية بعد ذلك . فالحكمة والرغبة في النجاح تقتضيان علاج هذه المسائل حالما تنتهي الحرب

فكيف المخرج من هذا المأزق ؟ اذا كان انشاء هيئة عالمية دائمة بعد الحرب مباشرة أمراً متعذراً ، واذا كان التأخير في معالجة المشكلات السابقة الذكر باعثاً على الفوضى ، فالى أية هيئة منظمة نستطيع ان نعهد في معالجة هذه المشكلات ؟ ان الجواب الوحيد هو ان هذه المهمة الخطيرة يجب ان تقع على كاهل الهيئة الحربية العامة التي انشأها الدول المتحدة للإشراف على الحرب . ولا نقصد بها الهيئة الحربية كما هي الآن اذ لا بد من التسليم بأنه ليس لنا الآن هيئة حربية موحدة توحيداً تاماً ولكن الدول المتحدة سائرة الى هذا الهدف وقد تقدم انشاء هذه الهيئة فيما يخص الولايات المتحدة وجامعة الامم البريطانية تقدماً كبيراً وحول هذه النواة انشئت صلات وثيقة بالصين وروسيا تدل على وحدة العمل وروح التعاون وفقاً لمقتضى الحال . وللدول الصغيرة والبلدان المحتلة نصيب في هذا التنظيم . هذه الوحدة لا تنجلي في اتفاق المبادئ والآراء وحسب ، بل هناك لجان ومجالس تتولى توحيد العمل الحربي من جميع وجوهه ، ومنها ما لا نعرف اسمه ولا شيئاً عن اعضائه . ولكن مظاهر نشاطه بادية لا يخطئها النظر ، في توزيع المهام الخاصة بالانتاج الحربي ، وتثبيت الصلة النقدية بين الدولار والجنيه وغيرها من انواع النقد، وفي السيطرة على أسباب النقل وتوجيه القتال في شتى الميادين وفقاً لخطة عامة مشتركة . وسيضطرد تعزيز هذه الوحدة بحسب سير القتال

والبإت على القاء مهمة فترة الانتقال على كاهل الهيئة الحربية للدول المتحدة هو انها خير أداة معروفة تستطيع النهوض بالاعمال التي تقدم ذكرها . تصور الحالة في طائفة من الأمم كأمم البلقان او الأمة الهولندية أو الأمة الرومجية. فقد تنقضي أشهر أو سنوات قبلما تعود الحياة النيابية في هذه البلدان الى حالتها السوية ، وقد مضى فريق غير يسير من أقطاب هذه الأمم الى لقاء ربهم خلال الحرب ومنهم من نجا ولكنه لا يمثل الآن الرأي الغالب على تفكير أمته . والحياة النيابية من جميع وجوهها لا يستطيع استئنافها الا استئنافاً بطيئاً. وهذا مثل واحد

ولست أجهل أن نقداً لا ذعاً سيوجه الى هذا المقترح وان الناقد سيزعم اننا بتطبيقه نزل عن مثلنا الديمقراطية ونعتمد الى اسلوب التحكّم النازي ، واننا نقيم على العرش النظام الذي كاخنا لهدمه . وفي الوسع ان زدّ هذا الاعتراض من غير ناحية واحدة . ففي المقام الأول إن الغرض من هذا النظام العابر هو اسداء العون الى المحكومين وفيه تضحية من جانب الحاكمين ، وهو ما لا يمكن ان يقال عن الحكم النازي . وفي المقام الثاني هذا اللون من الحكم عابر والغرض منه أن يفضي الى انشاء نظام عالمي أساسه الاختيار والتمثيل . وفي المقام الثالث ان هذه الهيئة المشرفة عليه هي في الواقع هيئة تمثل الدول المتحدة مع ان التمثيل ليس على قاعدة برلمانية . ثم ان تطبيق القواعد العامة يتفاوت بتفاوت البلدان في بلدان الاعداء يكون التطبيق شديداً وفي البلدان الموالية يكتفى بالاشراف متى ثبت ان هناك من يستطيع النهوض بالتبعات العامة على أكفأ وجه . ولعل أبلغ دليل على ضرورة فترة الانتقال هو الحاجة الى الصدوف عن المسائل السياسية فتعامل الشعوب من حيث هي طوائف من الرجال والنساء والاطفال بغير نظر الى جنسية أو عنصر ويكون المقام الاول في معاملتها لما تحتاج اليه من قوت ولباس وعلاج وعمل ونقد ثابت على أساس من الانصاف والعدل وفي جو من الامن والسلام . وكذلك تتعلم أوروبا ان حاجة الناس انما هي الى هذه الاشياء أولاً وانه اذا كانت الحاجة اليها قائمة فالمسائل السياسية والحدود الجغرافية تأتي في المقام الثاني أو لا شأن لها . ولعل الناس الذين تحركهم المطامع القومية يتعلمون عن طريق الحس والملاحظة في أثناء فترة الانتقال ، أن للانسانية رابطة جامعة وان الاهتمام المبالغ فيه بالمازاي القومية والعنصرية يجب أن يعنوا لما تتيحه الحياة الدولية المشتركة والتعاون العام من مزايا عظيمة أما ما يجب ان يكون أمد هذه الفترة مرتبطاً بأمرين في المقام الاول ، أحدهما مدى علاج الأمراض الحادة ، الاجتماعية والاقتصادية التي يعانها عالم برحت به الحرب . وثانيهما مدى النجاح في انشاء هيئة عالمية دائمة تكون كفوءاً للنهوض بالتبعات والمهام التي لم تنجز في فترة الانتقال . ويجب ان يلاحظ ان مدى فترة الانتقال وعمل الهيئة التنفيذية المشرفة على معالجة مسائلها الكثيرة ، لا ينتهيان عند حدٍ قاطع ، بل الرأي ان المدى والعمل يندجان رويداً رويداً في نظام الهيئة العالمية وفقاً لاستكمال انشائها واطراد تقدمها في النهوض بالمهام الملقاة على كاهلها . ويجب ان نذكر كذلك ان عشر سنوات تقريباً انقضت بعد الحرب العالمية الأولى قبل ان انتظمت المانيا عضواً في عصبة الامم . ولذلك يختلف القول في أمد هذه الفترة من خمس سنوات الى عشر سنوات (١)

(١) وقد لحص الدكتور وطن في ختام محاضراته اوصاف الهيئة العالمية المقترحة وسنعود اليها

وقفه وداع^(١)

لعدنان مردم بك

أي سرّ هتك الدمع لنا يوم الوداع
أيقظ الكاشح ما أبدت من فرط التبايع
حين للذكرى على العينين فيض من شعاع
ولغرب العين من نا ر الأسى سبق اندفاع

عصف الوجد فريع القلب من هول انصداع
فلغصات النوى في الصدر عضات السباع
يتلوى جامع الأهواء غيظاً كالافاعي
وله وثب اندفاع وله قبض ارتجاع
ونجى لهم من أشجانه شلو صراع

مدّت الأيدي الى الاءناق من فرط ارتبايع
والتقى ثغر بثر وذرّاع بذراع
وهوى الرأس على السا عد من عبء اضطلاع
حين للأشواق في الأكباد نيران اندلاع

يوم راحت تصف البين وتبكي من هلاع
فالتقى الثغران منا واعتنقنا لزمايع
كلما قبلتها أو رى الأسى نار التبايع
حين للأشواق في الأكباد نيران اندلاع
أي سرّ هتك الدمع لنا يوم الوداع

دمشق

معضلة التغذية

في مصر

للدكتور حسن كمال

مساعد مفتش صحة القاهرة

« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة
فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه »
(قرآن كريم)

سوء التغذية في مصر

﴿ مقدمة ﴾ : هناك طائفتان يتكوّن منهما السواد الأعظم من سكان القطر المصري . هما الفلاح والعامل . أما الفلاح فمخلوق تعسّ سيء التغذية فقير كثير الأمراض . وهو في الوجه البحري ومصر الوسطى يقتات خبز الذرة الشامية . وفي الصعيد خبز الذرة الرفيعة المزوجة بالخلبة . ويفضل الفلاح هذا الخبز على خبز القمح لأن مدة مكثه في المعدة أطول فيؤخر ألم الجوع . أما أدمه فأغلبه المخلل من البصل واللفت والخيار والفلفل والليمون وأحياناً المريس والجعضيض والسلق والكوسمة والباذنجان اذا ما كبر حجمها ورخص ثمنها . ويطبخ غذاءه مع البصل دون اللحم ، بالزيت مرة أو مرتين في الاسبوع . ويفضل فلاحو الصعيد طهي العدس . ولا يأكل الفلاح اللحم الا في المواسم والأعياد . واذا أشرفت إحدى مواشيه على التفوق ذبحها وباع لحمها رخيصاً . وحالته المالية علاقة باستهلاك اللحوم . ويأكل الفلاح البسارية وهو سمك صغير رخيص . أما البيض فيستعمله للمقايضة لا للطعام . ولا يأكل من الفاكهة الا رخيصها كالخرش والعجور والجز والبلح . وأما العامل في المدن فعناصر طعامه في الصباح ، هي الخبز والبقول أو العدس المدمس أو العسل او الطعمية ، وعناصر طعام الظهر هي الخبز والطعمية أو السلطة أو الفجل أو الكراث او الباذنجان المقلو وما شاكل ذلك . وقد يأكل العامل اللحم مرة في الاسبوع . لكنه لا يشرب اللبن الا في المرض . أما الفواكه فيأكلها أحياناً . فهو من هذه الوجهة أحسن حالاً من الفلاح

وإن نظرة واحدة الى هذا الغذاء كافية لأن تظهر سوء حالة الفلاح والعامل من ناحية الغذاء وكثرة امراضها الناجمة عنها. لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد. فالزراعة في القطر المصري مهنة خطيرة لها أمراضها كالبلهارسيا والانكاستوما كما ان هناك امراضاً أخرى كالديدان المعوية تنتقل عن طريق الغذاء الوضع السالف الذكر. والى القارىء بياناً عن نقشي هذه الامراض

| | | |
|--------------------------------|-----------|------------------|
| فعدد المصابين بالبلهارسيا | ١٢٠٠٠٠٠٠٠ | أي ٧٥٪ من السكان |
| وعدد المصابين بالانكاستوما | ٨٠٠٠٠٠٠٠ | أي ٥٠٪ من السكان |
| وعدد المصابين بالديدان المعوية | ٨٠٠٠٠٠٠٠ | أي ٥٠٪ من السكان |

قال الدكتور علي بك حسن في محاضراته بمؤتمر الاتحاد الملوكي للجمعيات الطبية سنة ١٩٣٩ (١) ان الحكومات الأوروبية وسواها لم تكن مدفوعة بعوامل انسانية محضة عند ما نهضت في دراسة مسائل التغذية في بلادها بل كانت مسوقة بعاملين أولهما: ارتباط حالة العامل الصحية بغذائه وأنه كلما كان العامل صحيحاً كلما كان انتاجه كثيراً ومتقناً. وثانيهما: متصل بمقام الأمة الحربي لأن كثيراً من البلاد الأوروبية اكتشف في أخرج الأوقات ان نسبة الرجال الصالحين للخدمة لا تكفي لتأليف الجيش المطلوب. وان كثيرين ينسبون هزيمة المانيا والنمسا في الحرب العظمى الى نقص المواد الغذائية نتيجة الحصار البحري الشديد الذي فرضه عليها الحلفاء. والقسم الصحي في عصبة الأمم قد ساهم في هذا الموضوع من سنة ١٩٢٥ وظهر اول تقرير له سنة ١٩٣٥ للدكتورين (بيرنت) و (ايكرويد)

وقد قررت اللجنة الصحية أثر ذلك تأليف قومسيون فني ولجنة مختلطة لدراسة مسائل التغذية. وفي عام ١٩٣٦ أصدرت اللجنة المختلطة تقريراً أولياً عن علاقة التغذية بالصحة والزراعة والسياسة والاقتصاد. وفي عام ١٩٣٨ نذبت وزارة الصحة الدكتور علي بك حسن لتمثيل اللجنة الأهلية المصرية للتغذية في عصبة الأمم والكساح ولين العظام والبلاجرا والآنيميا الخبيثة من أخطر أمراض سوء التغذية في القطر المصري. وتسبب البلاجرا ٩٪ من إصابات النازلين في مستشفيات الأمراض العقلية. وقد تكلم معالي وزير الصحة الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن علاقة التغذية بالصحة العامة (٢) بإيضاح جاء ضمنه ان ٧٠٪ من تلاميذ المدارس الابتدائية مصابون إصابة واضحة بسوء

(١) المجلة الطبية المصرية نوفمبر سنة ١٩٣٩ (ص ٨٤٠ — ٨٨١)

(٢) المجلة الطبية المصرية أكتوبر سنة ١٩٣٩ (ص ٨١٣ الخ)

التغذية (ص ٨١٥) . وان ١٧٪ من المقترعين يرفضون لقصرهم . وان ٩٠٪ من طلاب الجامعة غير لائقين عسكرياً لقصرهم . وان أغلب النساء الفقيرات لا يظمن أطفالهن قبل السنة الثانية من العمر لأنهن لا يجدن في حالتهم من الفقر غذاءً صالحاً غير الرضاعة لأولئك الاطفال . وان ٤٥٪ من الاطفال دون السنة الثانية من العمر مصابون كثيراً أو قليلاً بالكساح . وان مرض الغوتر الناشئ عن قلة اليود في الغذاء متوطن في بعض قرى القطر (ص ٨١٦) وان جفاف القرنية والعشو منتشران انتشاراً غير قليل . وان هناك ٢٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠٠ مسلول بالبلاد يموت منهم سنوياً ما بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ (ص ٨١٧) . وان الطعام الذي يعطي الرجل البالغ نحو ٣٢٠٠ سعراً حرارياً في اليوم ويشمل كذلك ما يحتاج اليه جسمه من أغذية الوقاية، يساوي في السوق (عام ١٩٣٩) ٥٢ مليماً . وان رجلاً وزوجته وطفلين (سنيهما ٣ سنوات و ٥ سنوات) تتكلف تغذيتهم ٤١٣ قرشاً شهرياً . وان هناك أربعة ملايين مصري بايراد شهري أقل من جنيه واحد و ٢٥ مليون آخرين يعيشون بايراد شهري أقل من ٣ جنيهات و ١٦ مليون مصري فلاح يعيشون بايراد شهري أقل من ٦٠ قرشاً . وان ٩٣٪ من ملاك الاراضي لا يملكون غير ٢٠٪ من الاراضي (ص ٨٢٠) . وان متوسط ما يخص الفلاح الواحد من الارض انحط من ٨٧ ر. فدان (عام ١٨٩٧) الى ١٠ ر. فدان (١٩٣٧) فكانما قد تضاعف الفقر في الأربعين السنة الاخيرة (ص ٨٢٠) وان الأغذية الواقية هي عادة المرتفعة في الثمن (ص ٨٢١)

ويرى الدكتور ولسون أستاذ علم وظائف الاعضاء بكلية الطب سابقاً ان الغذاء المصري المحلي غير صالح للأسباب الآتية : (١) قلة المواد الزلالية فيه وعدم جودة نوعها . (٢) نقص محتويات الفيتامين (١) و (د) . (٣) نقص مقادير المعادن الحيوية . وان سوء غذاء الشعب من نقص محتوياته الزلالية والفيتامينية يعد من أهم العوامل في ارتفاع نسبة الوفيات وانتشار أمراض البلاجرا وأمراض الصدر والقناة الهضمية والكساح وتسوس الاسنان . وانخفاض أجور العمال يحول دون التغذية الصحية الكافية . فالاجر اليومي لعمال الورش والخبازين وعمال السجاجيد والورق الخ . هو ٦٢١ مليماً (١٩٣٩) و لعمال السكك الحديدية والكناسين والفعلة ٤٠ — ٤٥ مليماً وعمال الزراعة بين ٢٠ و ٣٠ مليماً (١)

وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٠ أصدر معالي علي باشا ابراهيم وزير الصحة قراراً بتشكيل لجنة لبحث مرض الدرن جاء ضمن تقريرها ان البحث المصري تكشف عن النتائج الآتية : —

(١) أن نسبة التفاعل الايجابي للتيوبركلين في الوجه القبلي والبحري لا تقل عن نسبته في البلاد الاوربية . (٢) ان ارتفاع نسبة التفاعل الايجابي بين ذوي الاعمار الى ١٥ سنة يدل على ان العدوى تحدث في المنازل والمحيط العائلي غالباً . وان السبل مرض الفقير لأنه لا يمكن صاحبه من أن يحصل على الغذاء الكامل القوي لجسمه والذي يدفع عنه العدوى وان هناك ملايين من المصريين يعيش الواحد منهم على أجر قدره قرشان يومياً (ص ٥٦٤) وان نقص الغذاء بين غير المحاربين في البلاد المحاربة أدنى الى زيادة مرض الدرن بشكل محسوس (ص ٥٦٨) ^(١) . وقالت اللجنة أيضاً (ص ٥٦٩) مما لا شك فيه ان غذاء الطبقات الفقيرة في مصر غير كافٍ مطلقاً لحفظ الصحة او للوقاية من الامراض . فالغذاء المصري غير صالح لقلة المواد الزلالية فيه وعدم جودة نوعه . والأغذية الشعبية تصنع عادةً من الغلال والحبوب وليس من مصدر حيواني كاللحوم واللبن والبيض . وهي فوق ذلك فقيرة في محتوياتها من الفيتامينات (١) و(د) وهي فقيرة ايضاً في المعادن الحيوية ولا سيما مادة الجير . يضاف الى ذلك ان أكثر الفلاحين يبيعون جميع بهائمهم وطيورهم ومنتجاتها دون أن يستبقوا ولو قليلاً منها لاضافته الى غذائهم فيحرمون أنفسهم وأولادهم العنصر الوافي الهام في الغذاء وسوء التغذية منتشر ايضاً انتشاراً كبيراً بين المدارس على اختلافها . مع ان الحاجة الى التغذية في سن النمو أكبر منها بعد اكتمال من الرجولة . وخاصة في أطفال المدارس الذين هم في أشد الحاجة الى تنظيم الوجبات الغذائية ومراعاة النسب في عناصرها ومطابقتها لأعمارهم وكفاية الغذاء حتى يتفق والجهد الذي يبذله الطفل بالمدرسة سواء أجمعانئياً كان في الألعاب الرياضية والنواحي المختلفة من النشاط المدرسي أم عقلياً في الدرس والتحصيل وسوء التغذية هذا وخاصة بين طبقات الشعب العاملة من أهم عوامل انتشار الدرن ورأت اللجنة في هذا الصدد (ص ٥٨٢) ما يأتي (١) خفض أثمان الأغذية (٢) الاكثار من مطاعم الشعب طول السنة وبيع اللبن فيها بثمن يسير (٣) الاكثار من انتاج الألبان وخفض ثمنها (٤) تعليم الجمهور ما يحتاج اليه جسمه من أغذية (٥) تدريس التغذية في مراحل التعليم (٦) اعطاء وجبة غذاء كاملة يومياً بالمدارس مع ملاحظة ان بعض الشركات الصناعية تعطي جزءاً من أجور عمالها كطعام (مثل شركة البترول الصناعية المصرية) . كما ان بعضها انشأ مطابخ محلية في مصانعه (كعلي اسلام باشا ومحمد يسين بك) يباع فيها الطعام بثمن يسير

هذا من جهة البالغين . أما من جهة الأطفال فان لسوء التغذية تأثيراً خطيراً فيهم أيضاً .

فقد جاء في تقرير لجنة بحث وفيات الاطفال المشككة بقرار وزاري في ١٧/١١/١٩٤٠ (١) ان الاطفال الى الخامسة من العمر يتكوّن منهم أكثر من نصف وفيات القطر عامة . بحيث يمكن القول إنه يجب عدّ مشكلاتهم وحدها في منزلة نصف جميع المشكلات الصحية والاجتماعية التي يجب العناية بها في هذه البلاد . ولو كانت الخسارة قاصرة على هذه الوفيات وحدها لكان الأمر شيئاً ما تبعاً لنظرية بقاء الأفضل . ولكن هذه الوفيات لا تدل على سلامة الباقين بل على نقشي الأمراض بينهم . والطفولة المريضة لا يمكن ان ينتج عنها غير شعب سقيم ومن أهم أسباب ارتفاع نسبة الوفيات الفقر والجمل وخاصة جهل الأمهات . وتشمل أيضاً عوامل أخرى كزيادة المواليد في العائلات الفقيرة . وكذلك عوامل ناتجة عن الفقر كسوء المساكن وسوء التغذية واستخدام الأمهات وغير ذلك (ص ٥١٧) وأنه يجب بذل الجهد في تقليل أمراض الاطفال والرضع من سوء التغذية بتفهم الحوامل الأمهات كيفية الرضاعة الصحية ومقدار التغذية اللازمة للطفل والابتعاد عما يضر بهم من هذه الناحية . كذلك تهيهن كيفية تغذية أنفسهن تغذية صحية على قدر الامكان (ص ٥١٨) . وان هناك عادة منتشرة بين بعض الأمهات أسوأ من إرضاع الطفل بدون انتظام . وهي اعطاء أغذية دسمة فتزداد حالات النزلات المعوية عند الاطفال وكذلك اعطاؤهم حلوى قذرة قد تراكم عليها الذباب أو فاكهة ملوثة غير ناضجة أو لحوم لا تقوى عليها صحة الكبار الاقوياء لا الصغار (ص ٥٢٦) قال الدكتور وندل كلياند بالجامعة الاميركية بالقاهرة « مما يدعو الى التفكير انه على الرغم من ضعف الصحة العامة في مصر فلا يوجد بها سوى طبيب واحد لكل ٥٠٠٠ من السكان . هذا مع العلم بأن السواد الأعظم من الاطباء يشتغلون في المدن وليس في القرى إلا عدد يسير منهم . فاننا نجد نسبة الاطباء في المدن هي طبيب لكل ١١٠٠ نسمة من السكان . بينما النسبة في القرى لا تتجاوز طبيباً واحداً لكل ١٣٠٠٠ من السكان . مع ان ٩٠٪ من أهالي القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ من سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤٪ وان ١٦٪ منهم يصلحون للخدمة بعد المعالجة . بينما ٨٠٪ لا يصلحون قط » « ومن البديهي ان الروح المعنوية في أية جماعة وتقدمها يتوقفان الى حد كبير على صحة الأفراد ... لكن نسبة الوفيات في مصر عالية جداً فهي ٣٠ في الألف أي أعلى نسبة في العالم . والسواد الأعظم من الوفيات هو بين الاطفال فان نسبة الوفيات بين الاطفال بلغت ٢٠٠ في الألف من المواليد في العام لكن مسألة الوفيات ليست إلا ناحية واحدة لحالة السكان العامة : فقد يعيش الانسان عمراً مديداً

دون ان يتذوق طعم الصحة والعافية ويكون عاجزاً عن القيام بواجبه في المجتمع على أوفى وجه ... »^(١)

طرق البحث

يحمل بنا أن نبدأ هذا الموضوع بإيراد بعض آراء الدكتور علي بك حسن^(٢) وتتلخص في « أن طرق بحث هذا الموضوع جرت عادةً بأن يبدأ أولاً بمعرفة ما يأكله الأهالي جميعاً مع بيان ما يقومون به من أعمال ثم مقارنة ما يأكلونه فعلاً بما يجب ان يأكلوه من الوجهة الفسيولوجية ، لظهور عيوب غذائهم ان وجدت . ولمعرفة ما يأكله الأهالي عدة طرق أشهرها (١) طريقة الوزن . (٢) طريقة القيد . (٣) طريقة السؤال . (٤) طريقة الاحصاء . ومتى حصلنا على البيانات نستطيع بعد ذلك البحث في كفاية هذا الغذاء فسيولوجياً . ولا يمكننا تقرير ذلك الا بعد معرفة ما يأتي

(١) القيمة السعرية لما استهلك من الغذاء اثناء البحث (٢) مقدار القيمة السعرية التي يحتاج اليها أفراد العائلة فرداً فرداً في مدة البحث (٣) أصناف الأطعمة الواقية التي أكلتها العائلة فعلاً وما مقاديرها وتشمل هذه المواد الزلالية والفيتامينات والاملاح (٤) الاحتياجات الفسيولوجية لكل فرد من هذه الأطعمة الواقية . أما الاجابة عن السؤال الاول فسهلة . ومن الميسور تعيين القيمة السعرية لغذاء ما في مدة وجيزة . أما باقي الأسئلة فلم نستطيع الاجابة عنها الآن . لاننا الى هذه الساعة لم نحلل أطعمتنا تحليلاً غذائياً . ولم نعين الغذاء الفسيولوجي لأفراد الأمة . أما الاستعانة بالمراجع الأجنبية للاجابة عن هذه الأسئلة فعادة أصبحت مكروهة في الأوساط الفنية . لأن البحث أظهر أولاً ان تركيب الأغذية يختلف اختلافاً بيناً بين مملكة وأخرى حتى في الصنف الواحد . وقد يختلف التركيب أيضاً في النبات الواحد في مناطق مختلفة داخل المملكة نفسها . وثانياً لأن هناك ما يسوغ الظن بأن الاحتياجات الفسيولوجية قد تختلف قدراً ونوعاً بين أمة وأخرى . ويحيل إلي اننا لو قارنا نماذج الأغذية التي اتخذت منها اللجنة المختلطة أساساً فسيولوجياً بما يأكله بعض المصريين الأصحاء والكثيري الذرية للاحظنا فرقاً كبيراً بينها قد يسوغ الظن بجواز حيازة بعض أطعمتنا لخواص غذائية طيبة لم يكشف عنها العلم ، لأن أغذية المصريين يندر فيها اللبن وتقل فيها اللحوم »

« والحقيقة انه لا يكون البحث بحثاً تاماً الا اذا عرف تركيب أطعمتنا المصرية معرفة تامة

تشمل موادها العضوية وغير العضوية والفيتامينات أيضاً..... وان حالة الشعب كما أراها تجعل من المتعذر إلا في حالات شاذة الاستعانة بطريقة الوزن او طريقة الدفاتر في أبحاثنا الغذائية . والطريقة الوحيدة التي تنفعنا في أبحاثنا هي طريقة الأسئلة (ص ٨٥٠) وان المعايير الصحية الأجنبية لا تصلح لدراسة الأمراض الغذائية المستكنة في البيئة المصرية . وان النتيجة التي حصل عليها الاستاذ الدكتور الوكيل بك والدكتور الملاح بك بين التلاميذ تعزز عندي هذا الرأي . فقد أظهرت معادلة فون بريكه مثلاً أن ٧٠٪ من التلاميذ دون المتوسط او دون المعيار الاوربي . ومعادلة فون بريكه هذه تستعين بطول الجذع والوزن . ولكن ظهر ان نسبة حدوث فقر الدم بين هؤلاء التلاميذ لا تزيد على ١٦٪ وفقر الدم كما تعلمون هو من العلامات الثابتة لسوء التغذية . فأيهما نصدق اذن ؟ معادلة فون بريكه او فقر الدم ؟ أنا أميل للاعتماد على فقر الدم الى ان نعمل لانفسنا معادلة مماثلة خاصة بنا كأمة لها ميزاتها الجماعية (ص ٨٥٤) ... « وانني أشعر اننا سنسير في هذا السبيل ببطء مادامت البلاد خالية من معهد خاص بمسائل التغذية (ص ٨٥٨) ... »

الزراعة والصحة

هذا من الوجهة الطبية البحتة اما الوجهة الزراعية فلاموضوع خطورته أيضاً . لأن هذا البحث متعدد النواحي متباين الأطراف . ولعل أ كفاً من ساهم في هذه الناحية هو سعادة حسين بك عنان وكيل وزارة الزراعة . وسأورد هنا بعضاً من آرائه التي تمس الموضوع وان كان بحثه من اوله الى آخره جديرٌ بكل تقدير وعناية . قل سعاداته في علاقة الانتاج الزراعي بتغذية الطفل^(١) ما يأتي : —

« لضمان تغذية الشعب المصري يجب ان تتوافر العوامل الآتية (١) وفرة الانتاج الزراعي (٢) تعدد انواع الحاصلات والخضر والفاكهة ووفرتهما للاستغناء بها عما يرد اليها من الخارج (٣) توفير الاغذية الحيوانية . (٤) المحافظة على المحصول سواء النباتي والحيواني وحفظه من التلف في اثناء النمو والتخزين والشحن الى مكان التوزيع والاستهلاك . (٥) التوسع في الصناعات الزراعية واتقانها . (٦) ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد إلا يسيراً عن سعر الجملة . (٧) عمل احصائيات دقيقة سنوية عن الانتاج » وقد عالج هذه الموضوعات بما هو معهود فيه . فقال عن وفرة الانتاج الزراعي انه يتوقف على عوامل أهمها : (١) توافر الارض الصالحة للزراعة . (٢) كثرة الايدي العاملة المدربة على الشؤون الزراعية . (٣) توافر الشروط اللازمة لنجاح المحصول (٤) زراعة

الاصناف الكثيرة الغلة . ثم استنتج (ص ٤٢١) ان بالقطر المصري ما يقرب من مليون فدان من الاراضي البور القابلة للاصلاح كافية للقيام بأود الزيادة المضطردة في السكان الى امد بعيد . ومن أهم ما عالج به سعادته مشكلة الأيدي العاملة المدربة توجيه التعليم الازامي والأولي توجيهاً زراعياً محضاً . وان تكون أغلب المدارس الابتدائية مدارس زراعية ابتدائية عامة وتخصيصية بحسب الزراعة السائدة بالمناطق المختلفة كمناطق الأرز بشمال الدلتا والقصب في الصعيد والألبان في دمياط والخضر في الاسكندرية وهكذا . وانشاء مدارس لاجراج نظار العزب وأخرى زراعية ميكانيكية وأخرى لصناعة الألبان وتربية النحل وغير ذلك »

« وقد ثبت من دراسة الاحصاءات الخاصة (ص ٤٢٣) ان القطر المصري يكفي نفسه من كافة الحاصلات علاوة على ما يصدره منها . ولكنه يستورد مقادير قليلة من القمح والحمص والتمر والبقول السوداني والسمسم وذلك في الفترة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ . وبلغت مساحة الاراضي المزروعة خضراً وقتئذ ٨٨٩ ٢٠٢ فداناً . أما زراعة الفواكه سنة ١٩٢٩ فبلغت مساحتها ٢٦٦ ٥٤ فداناً منها ١٧ ٧٣٤ فداناً موالح . فواجب على مصر التوسع في زراعة هذه الاصناف واقامة ثلاجات كبيرة لحفظ الفاكهة والخضر لسد حاجات السوق وقت الحاجة . وقال سعادته أيضاً (ص ٤٢٤) عن البلح ما يأتي : —

لما كان البلح من الاغذية الغنية المولدة للطاقة وبه نسبة لا بأس بها من البروتين ، وهو غني كذلك بالفيتامينات والاملاح المعدنية المفيدة كأملاح البوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والفسفور والفلور والكبريت الخ . . . وله تأثير مدفيء لما يخزنه من قدر كبير من طاقة الشمس Solar energy فانه يجب تشجيع استهلاكه بين الطبقات العاملة إذ يكفي لتغذية شخص واحد منه ١٨٠ جراماً ويبلغ عدد اشجار النخيل بالقطر المصري بحسب آخر احصاء ٨٣٤٠٠ ٠٨٣ نخلة (١٩٣٩) وهذه المقادير لا تكفي لاستهلاك القطر ويجب ان تتضاعف حتى يتيسر للفلاح والعامل المصري أن يجعل البلح غذاءً أساسياً له لرخصه وجودته وهذا هو مشروع وزارة الزراعة والسياسة التي يعمل قسم البساتين على تنفيذها

« ويجب أن تكون هناك سياسة خاصة لتوفير الاغذية الحيوانية من ذبائح وألبان ومنتجاتها ودواجن وأرانب وغيرها ليتوفر اللحم لعامة الشعب . ومن عجب أن تستورد مصر من الاغذية الحيوانية الكثير من الخارج كفلسطين وسوريا والعراق والبلقان والحجاز وتونس وقبرص وغيرها مع انها بلاد زراعية . وقد أورد عنان بك ما تستورده مصر من الحيوانات ومنتجاتها عن سنة ١٩٣٧ بياناً شاملاً^(١) نورد منه ما يأتي : —

| | | | | | |
|-------------------------------|--------|-----|------|--------|------|
| أغنام | ٧٠٩٩٠٠ | رأس | ثمها | ٦١١٠٠ | جنيه |
| فصيلة بقرية | ٧٩٠٠ | رأس | » | ٤٧٥٠٠ | » |
| جمال | ٢٥٠٠٠ | رأس | » | ١٤٩٠٠٠ | » |
| مواد دهنية حيوانية | | | » | ٧٠٨٠٠٠ | » |
| ألبان ومنتجاتها وبيض وعسل نحل | | | » | ٢٨٨٠٠٠ | » |

وقال وكل هذه ممكن انتاجها وأكثر منها بل اضعافها في بلادنا واغراق الاسواق الاجنبية بها . وقال أيضاً والغرض من الاغذية الحيوانية اعطاء الجسم ما يحتاج اليه من البروتينات . ولكن الجسم يمكنه أن يحصل على ما يحتاج اليه منها من فول الصويه Glycini Soya الذي ينمو ببلاد الصين واليابان وقد جربت زراعته صيفاً كالذرة الشامية وهو من جهة المحصول والصنف والصفات لا يقل في مصر عنه في البلاد الأخرى (ص ٥٩٣) . . . ويستخرج من هذا الفول الزيت والبروتينات والدقيق وغير ذلك . . . ومحصول هذا النبات كثير الغلة غني في البروتينات التي لها نفس القيمة الغذائية كالبروتينات الحيوانية في اللحم والبيض واللبن . وهو من الوجهة الحيوية غذاء كامل بمعنى السكامة . ففي كيلو غرام واحد منه غذاء يعادل ما في ٥٨ بيضة او ٦٥ لتر لبن او ٣٥ ك لحم خالٍ من العظم . وروتين كيلو جرام واحد منه يوازي بروتين ١٥٠ بيضة وهو يحتوي على ٤١ ٪ بروتين و ٢٠ ٪ دهن و ٢٠ ٪ كربوايدرات . وهو غني في مادة اللستين التي في صفار البيض . وهو علاوة على ذلك سهل الهضم مشبع . فذا زعمت زراعة هذا الفول وانتشاره بين الطبقات العاملة في القطر المصري فإنه يسبب اقتصاداً عظيماً جداً في مقادير الفول واللحوم والدهن المستهلكة الآن في البلاد

ودقيق هذا الفول مفيد جداً للذين يزاولون أعمالاً بدنية مجهددة فهو لذلك أوفق غذاء للفلاح والعامل المصري . وهو علاوة على ذلك غذاء شديد القلوية (+ ٢٦٥) «

ومن أهم العوامل التي تؤثر في تغذية الشعب هي المحافظة على المحصول من التلف وتخزين ذلك المحصول . وقد نجحت تجارب وزارة الزراعة في تخزين البطاطس للتقاوي في الثلاثات أعظم نجاح (ص ٥٩٤) . أما وسائل الحفظ بالتعقيم بالحرارة فنفقدها فينا مين (C) أو جزءاً منه . ومن أهم العوامل في تغذية الشعب ضمان توزيع المحصول في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الايسير أعين سعر الجملة ومن أهم وسائل ذلك تنظيم أسواق الغلال والحبوب والخضروا والفواكه وتحسين وسائل نقلها وتعبئتها وتنظيم السلخانات وتعميمها وان عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج من أهم العوامل لفحص تغذية

الشعب اذ يمكن البلاد من معرفة حالة حاصلاتها ومقاديرها وكفايتها لسد حاجاتها لتبني بذلك سياستها الزراعية في السنين التالية . لذلك كان الواجب يحتم وضع سياسة عملية يمكن بواسطتها الحصول على بيانات احصائية صحيحة وافية من الملاك مباشرة عن انواع المزروعات ومساحتها ومقدار غلتها وغير ذلك من البيانات اللازمة . وذلك باعطائهم « استمارات » تصرف مع ورود الاموال ليلاً وها بمعرفتهم او بمعرفة الصراف مع تفهيمهم ان نتائج هذا الاحصاء هي في مصلحتهم الشخصية لانها تساعد على تحديد الاسعار بما يتفق والانتاج الحقيقي »

الخبز الشعبي

والآن ننتقل الى موضوع آخر من موضوعات التغذية له خطورته القصوى في مصر ، فالرغيف أساس التغذية في هذا القطر . لكنهُ كثير التباين من حيث محتوياته ووزنه ورطوبته وغير ذلك ، لذلك يجب ان يبذل جهد كبير لضمان بقاء قيمة الرغيف الغذائية عالية وافية . فان اصلاح الرغيف ناحية هامة من نواحي اصلاح تغذية العامل في المدن . والتشبهت بضرورة عمل الرغيف من دقيق صاف ابيض اللون يجب ان لا يقف عثرة في عمل المباحث الطبية لابتكار الدقيق الذي يتفق وحالة البلاد . وزمن الحرب فرصة مناسبة لاصلاح نقائص الخبز . واذا لاحظنا ان القناة الهضمية بأكملها من الاسنان الى القولون لا تنسجم مع الاغذية النقية حتى شبه الشخص العائش على الاغذية النقية refined بمن يحفر قبره بأسنانه ، واذا كان غش اللبن باضافة الماء اليها مما يسبب الاقلال من نسبة المواد الصلبة وغيرها يعاقب عليه قانوناً ، فأجدر بنا ان لا نعدّ فصل المعادن والفيتامينات المفيدة من دقيق القمح عملاً يستوجب الثناء والتقدير . والصعوبة في تفهم ذلك راجعة الى أن الرأي العام يأنف كثيراً من تدخل الاطباء في فرض اشتراطات على أغذيته باسم الصحة . وهذا الكره الغريزي سوف يستغرق زمناً طويلاً لازالته . والى ان يأتي هذا اليوم يمكن استعمال الخبز الاسمر في المستشفيات والملاجئ والمجتمعات العديدة الاخرى

قال الدكتور ولسن « استاذ الفسيولوجية » ان الخبز يكون ٨٠ ٪ من الجهد الحراري في غذاء الفلاح بينما يكون ٥١ ٪ من قيمة غذاء العامل بانككترا ونحو ٢٠ ٪ من قيمة غذاء الطبقات الراقية بانككترا . ومن الغريب ان سعر القمح المزروع بانككترا يوازي نحو ١٠٠ قرش (١٩٣٩) للاردب وهذا أرخص كثيراً من سعره بمصر وقتئذٍ مع ان أجور اليد العاملة هناك تكاد تكون عشرة أضعافها هنا ! (١)

وقال الدكتور محمد عبده عباسي « ان هناك أمراً له شأنه من الوجهة الغذائية للحبوب . وذلك ان معظم ما تحتويه الحبوب من مواد زلالية وأملاح معدنية وفيتامينات يوجد في الأغلفة الخارجية للحبوب وكذا في الأجنة التي تنزع عادةً وتهمل قبل تهيئة الحبوب للاكل . مثال ذلك تبييض الارز وطحن القمح لعمل الخبز من الدقيق الابيض فقط وإهمال الباقي من ردة بأنواعها والسن . فالخبز الابيض الذي يحببه الناس لحسن لونه أقل فائدة من الوجهة الغذائية من الخبز المصنوع من الدقيق الكامل الناتج من خلط الردة والسن وخلافه مع الدقيق بعد طحن القمح والذي يتبقى فيه من المواد الزلالية والدهنية والاملاح والفيتامينات فضلاً عن ان ما بالردة من سليولوز يساعد على تنشيط الامعاء ومنع الامساك . وهكذا الحال في باقي الحبوب . ولتليدين الخبز أو تقيمه فائدة كبيرة اذ تتحول بعض المواد النشوية الى دكستريينات وهي أكثر ذواباً وأسرع هضماً من النشا . ثم ان العيش المدين أو البسكويت نظراً لصلابتهما فان الأسنان تستطيع تكسيرهما ومضغهما جيداً وبسهولة . وبذلك يمتزجان أكثر باللعاب الذي يحوي خميرة خاصة (التايلين) لهضم المواد النشوية » (١)

وفي أثناء مناقشة الخبز الابيض والاسمر بمجلس اللوردات بجلسة ١١ / ٣ / ١٩٤٢ (٢) جسد اللورد هوردر Horder الخبز الاسمر قائلاً ما معناه :

ان الدقيق الاسمر الحاوي ٨٥ ٪ من حب القمح لا يحدث عسر الهضم . ولم يلاحظ عسر هضم ناشئ من الدقيق الاسمر في أثناء استعماله في الحرب العالمية الماضية مع انه كان يحوي نسبة أعلى من ٨٥ ٪ . ويستعمل في جنوب افريقيا للخبز دقيق يحوي ٩٠ ٪ من القمح . وقال انه لا يستطيع ان يخص بالذكر مرضاً ما ، يفضل فيه أكل الخبز الابيض على الاسمر حتى في حالات قرح المعدة والاثني عشري فانه متى سمح للمريض بتناول الخبز تساوى احتمال المريض للخبزين الاسمر والابيض . بل أكثر من ذلك فان الأدلة تتجمع الآن على ان زيادة مقادير المعادن والفيتامينات التي في الخبز الاسمر المصنوع من الدقيق الشعبي National Wheatmeal تساعد كثيراً على التئام القروح . وخرج بالنتيجة الآتية :

وهي ان الرغيف الشعبي المعروف بالاسمر National Loaf قد يكون عظيم الفائدة للطبقة الفقيرة . وهذه عبارته حرفياً أوردها هنا لعظم قيمتها

“ The National Loaf would be of great benefit to those living behind the poverty line. ”

(١) محاضرة بالمؤتمر الرابع للاتحاد المالكي للجمعيات الطبية — المجلة الطبية المصرية نوفمبر سنة ١٩٣٩

ص ٩٢٨ و ٩٢٩

(٢) المجلة الطبية الانكليزية ٢١ / ٣ / ٤٢ ص ٤٠٠

وقد أكد اللورد ولتون Woolton وزير الطعام في نفس الجلسة ان الخبز المصنوع من هذا الدقيق (٨٥ ٪) سوف يكون جيد المادة حسن التكوين good texture مستساغ الطعم . وانه سوف يكون خبزاً نقيّاً يختلف كثيراً عن خبز الحرب العالمية السابقة ويفوقه فائدة^(١)

وفي العام الماضي (١٩٤١) أصدر مجلس الابحاث الطبية الانكليزي British Medical Council مذكرة عن الخبز المصنوع من ٨٥ ٪ من القمح المستعمل ببلاد الانكليز في صناعة الخبز الشعبي National Bread جاء فيها^(٢):

﴿ مزايا غذائية خاصة بهذا الدقيق ﴾ انه يحوي (١) أكبر مقدار من الفيتامين B بأنواعه بما في ذلك riboflavine و nicotinic acid وعلى الأخص الفيتامين B₁ . (ب) انه يحوي أكبر مقدار ممكن من البروتين بما في ذلك الموجود منه في الغلاف الخارجي للحب . وهذا الأخير معروف انه أكثر تغذية من البروتين الموجود في الدقيق الأبيض . (ج) أقل مقدار من الردة الخشنة bran حتى لا يسبب عسر الهضم . واشترطت لجنة عوامل التغذية الاضافية The Accessory Food Factors Committee بجلستها في ٢٣ / ١ / ١٩٤١ — ان هذا الدقيق يجب ان لا يحوي أقل من وحدة دولية من الفيتامين B₁ في كل جرام منه . — وان الردة الخشنة fibres فيه لا تزيد على ٩.٠ ٪ . وأوصى مجلس الابحاث الطبية ايضاً باضافة كربونات الجير Creta Preparata B. P. الى دقيق الخبز الأبيض بنسبة ٧ أوقيات لكل شوال به ٢٨٠ رطلاً من الدقيق الأبيض . وبنسبة ١٤ اوقية لكل شوال من الدقيق الأسمر ٨٥ ٪ . وذلك نتيجة لما ظهر من ان الطبقة الفقيرة ببلاد الانكليز ينقصها في طعامها أملاح الجير الضرورية لنمو العظام والامنان والحفاظة على سلامتها . وبالنسبة لكثرة حالات فقر الدم هناك عملت تجارب باضافة بعض الحديد الى الدقيق لكن اتضح انه من المحتمل ان أملاح الحديد هناك تسبب تلفاً لبعض النواحي الغذائية الأخرى . فرؤي عدم السير فيها الى ان تستجلى هذه المباحث

طريق الحل

﴿ النتيجة ﴾ يتضح مما تقدم ان التغذية في مصر معضلة على جانب عظيم من خطر الشأن وهي كثيرة الشعب بعيدة التأثير في صحة الشعب وقوة انتاجه ودفاعه . ولعل أفضل الطرق لمعالجة ذلك يكون بتشكيل لجنة عليا لمراقبة تغذية الشعب المصري مهمتها الاشراف على ثلاث لجان

(١) المجلة الطبية الانكليزية ٢١ / ٣ / ٤٢ ص ٤٠٠

(٢) مجلة The Medical Officer ٤١ / ٦ / ٧ ص ١٨٤

(هي اللجنة العلمية واللجنة الاقتصادية ولجنة الدعاية والنشر) وتذليل العقبات التي تعترض أعمال هذه اللجان علمياً وإدارياً ومالياً. أما اختصاص اللجان الثلاث فيكون على النوال التالي :

(١) اللجنة العلمية : أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة ويتركز عملها في معهد صحي خاص بمسائل التغذية مهمته (١) دراسة ما يحتاج إليه الشعب المصري من المواد الغذائية (٢) وضع معدل علمي للاحتياجات الغذائية للفرد رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً (٣) بحث تنوع الأغذية بحسب الفصول وبحسب المناطق (٤) بحث مقدار انتشار سوء التغذية بين طبقات الشعب (٥) تشجيع الأبحاث العلمية في الداخل خلاف المعهد (٦) تتبع الأبحاث العلمية في الخارج

(ب) اللجنة الاقتصادية : أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة والصناعة والتجارة والعمل ومهمتها (١) خفض الأسعار للجمهور (٢) مقاومة غش الأغذية (٣) وجبات مجانية بالمدارس الإلزامية والابتدائية والثانوية (٤) احصاء الانتاج الغذائي سنوياً (٥) زيادة انتاج أغذية الوقاية (٦) مخازن للتبريد لحفظ الأغذية (٧) تنمية صناعة حفظ الأطعمة (٨) تنمية الصناعات عموماً لرفع مستوى الدخل بين الفقراء والعمال (٩) وجبات مجانية للامهات والمرضعات بمراكز رعاية الطفل الخ (١٠) العناية بتغذية قوة الدفاع (١١) مساهمة مجالس المديريات والبلديات والمجالس المحلية والقروية وغيرها (١٢) وضع اشتراطات صحية للخبز الشعبي

(ج) لجنة الدعاية والنشر : أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة مهمتها (١) تعليم أصول التغذية بالمدارس جميعها (٢) مقالات بالجرائد اليومية والمجلات (٣) الاذاعة بالراديو (٤) عرض موضوعات التغذية في متاحف ثابتة ومتنقلة (٥) نشر الدعوة الصحية بواسطة الوحدات الصحية والزراعية المتنقلة (٦) محاضرات للجمهور عن التغذية (٧) خطب منبرية أيام الجمع (٨) نشرات غذائية طبية (٩) صور رمزية تظهر للجمهور أهم المواضيع الغذائية (١٠) أشرطة سينمائية (١١) الاستعانة بالقانونس السحري (١٢) مراسلات غذائية (١٣) روايات تمثيلية (١٤) مكافآت وشهادات تقدير (١٥) منافسات سنوية عامة بين هيئات من نوع واحد

هذه هي طريقة الحل المقترحة بإيجاز . وبديهي ان كل ناحية من نواحيها تستغرق بحثاً يناهز هذا المقال من أوله الى آخره . ولكن ما سبق ذكره يكفي لان يشرح للقارئ المقصود من هذه النقاط الهامة المتباينة . والرجال الاختصاصيون على العموم يستمتعون من هذه العبارات أضعاف ما يستنتجها القارئ العادي

طبقات الأرض

وموارد القارات

مهما تكن وجوه التحول السياسي والاجتماعي التي يحتمل أن تطرأ على حياة البشر ، فلا مفر من اطراد اعتمادهم في الحرب والسلم ، على الموارد المعدنية من فلزات ووقود وما أشبه . ومهما تكن قواعد النظام العالمي ، الذي يكافح في سبيله عشرات الملايين من الرجال والنساء ، فهذا النظام لن يصبح حقيقة واقعة إلا إذا كان ملائماً لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة في طبقات الأرض . فخير لجميع الذين يهتمهم مصير الانسان ان يعنوا بطبيعة المواد الخام وتوزيعها في طبقات الأرض وشتى مناطقها

ان المواد الأساسية التي يحتاج اليها الناس المتحضرون ، توجد في أحوال جيولوجية معروفة . وتوزيع هذه المواد ليس نتيجة للمصادفات . واذن في الوسع ان تعرف مواقعها على وجه كافٍ من الدقة . أما وقد علم الجولوجيون بالمسح والبحث ، التركيب الجولوجي لجميع قارات الأرض ، وما يتبع ذلك من مواقع العروق والتراكيب المعدنية المختلفة فيها ، ففي مكنة العلماء المختصين ، ان يصفوا وصفاً دقيقاً ما تحتوي عليه طبقات الأرض من الفلزات الرئيسية وأصناف الوقود وغيرها من الموارد المعدنية ، أو على الأخص ما كان من هذه المواد جميعاً متاحاً للانسان . وفي مكنتهم كذلك انشاء موازنة دقيقة بين القارات من ناحية ثروتها المعدنية . وقد يسهل البحث أن تقسم صخور قشرة الأرض ثلاث طوائف :

١ — فئة أولاً الطائفة المتغلغلة في القدم وهي الصخور المضغوطة المشوهة في ما يعرف بالطبقات السابقة للعصر الكمبري Pre-Cambrian وهذه الصخور تشمل الجرانيت والصخور النارية وكذلك الصخور المتحولة وهي صخور مترسبة طراً عليها عاملاً الحرارة العالية والضغط الشديد ، خلال عصور طويلة ، فغیراً من طبيعتها الأصلية . هذه الصخور تحوي كثيراً من ركازات الفلزات مثل الذهب والفضة والنحاس والنيكل والحديد ، وليست تحتوي في مكان ما حقماً ولا نفطاً ولا ركازات فلزات من نوع الالومنيوم والمغنيسيوم في كل قارة من قارات الأرض صخور من هذا القبيل ، وليس فيما يعلم ما يشير الى أن

منطقة كبيرة ما من مناطقها ، أبت أن تبسح للباحثين كنوزها الفلزية ، اذا أحسنوا البحث والنقب . ففي كندا حول خليج هدسن منطقة من هذا القبيل تقابلها منطقة أخرى في شمالي أوروبا الغربي ، وأخرى في سيبيريا المتوسطة الشمالية في آسيا . أما في نصف الكرة الجنوبي فهناك منطقة في البرازيل من هذا القبيل تقابلها منطقة في افريقية الجنوبية والمتوسطة وأخرى في استراليا

٢ — أما الطائفة الثانية فتشمل الطبقات المترسبة من العصر الكبري والعصر الذي يليه Post-Cambrian . وقد تكون هذه الطبقات منبسطة تحت تربة السهول او في النجود ، وقد تكون متجمدة جبلاً كما في جبال « أبلاكيان » Appalachian في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية . هنا تقع على أغنى موارد الفحم والنفط والبوتاس والمغنيسيوم وبعض الحديد والفلات غير الحديدية . ولكل قارة نصيب من هذه الطبقات . فحوض ميسيسيبي المتسع في قارة أميركا الشمالية ، يقابله منطقة صخور مترسبة شاسعة في أوروبا الوسطى بين جبال الألب ومرتفعات سكنديناوه . ومنخفضات حوض الأمازون في قارة أميركا الجنوبية تقابلها المنطقة المتوسطة في استراليا والسهول الواسعة في شمال آسيا

٣ — أما الطائفة الثالثة فهي الصخور المقترنة عادة بالفعل البركاني وأثره . وهذه الطائفة لا تقتصر على ما انقذف من لابة البراكين ولكنها تشمل الصخور النارية ، التي تبلورت في المناطق التي دفعت البراكين الى التكوّن ، او الى انشاء جبال كالقباب فوق سطح الأرض بغير ان تنقذف من كاس ما وتفيض على السطح . ففي تركيبات صخرية من هذا القبيل ، ولا سيما ما كان منها من العصر الثلاثي Tertiary نجد طائفة من أغنى موارد الفلات الثمينة كالنحاس والرصاص والزنك وكذلك التنغستن والفناديوم والمولبدنوم والمغنيس ، وهي الفلات التي لاغنى عنها في صناعة المخاليط الفلزية الحديثة . وكأّن الطبيعة قصدت ان تعامل القارات بالقسطاس فقسمت لكل منها نصيباً من هذه الصخور أسوة بالصخور التي تقدم ذكرها . فالجبال الغربية في قارة أميركا الشمالية وجبال الأندس في قارة أميركا الجنوبية وكثير من جبال آسيا الشرقية والجنوبية ، وغير يسير من نجود افريقية المتوسطة وجبالها ، تسلك جميعاً في هذا النظام

والواقع ان في كل قارة ، جميع أنواع الطبقات التي تستقر فيها أهم الموارد الطبيعية ، المستغلّة الآن في الصناعة أو التي يحتمل استغلالها في المستقبل . واذا كانت شعب الولايات المتحدة ، قد استخرج من أرضه حتى الآن ، أكثر من ثلثي انتاج النفط العالمي ، فلا نُه سبق غيره من الشعوب في احكام استغلاله هذا المورد . واذا استثنينا استراليا ، ففي

كل قارة موارد للنفط ، لا تقل ، اذا قيست بموارد النفط العالمية ، عن مساحة تلك القارات بالقياس الى مساحات القارات جميعاً

واذا كانت بلدان قارة أوروبا وبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا ، قد صنعت حتى الآن ثمانين في المائة من كل الصلب الذي صنع في العالم ، فهذا لا يعني أن بقية بلدان العالم لا تحوي إلا عشرين في المائة من موارد الحديد العالمية . بل يعني شيئاً واحداً وهو ان شعوب هذه البلدان سبقوا غيرهم في استكشاف الركاـز واستخراجه وصنعه . وما في آسيا وافريقية وامستاليا وأميركا الجنوبية من موارد الحديد لا يزال على الأكثر ، في انتظار من يستغلّه وخلاصة هذا البيان ان في كل قارة من القارات موارد وافية من المعادن الاساسية اي ان الطبيعة تتيح فرصاً متساوية للناس ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن في اغتنام هذه الفرص واستغلالها . إلا ان هذا لا يعني ان الطبيعة تميل الى انفزال كل قارة عن الاخرى واكتفائها . ذلك بأن القول بأن كل قارة تحتوي في طبقات ثراها موارد معدنية وافية ليس صحيحاً على اطلاقه . حتى اذا سلمنا بان بعض المعادن يصلح للاستعمال محل الآخر ، كاحلال النفط المستخرج من الفحم في اوربا — حيث الفحم كثير — محل النفط الطبيعي حيث النفط الطبيعي قليل ، وجدنا شذوذاً على القاعدة العامة . ففي معظم المناطق التي ارتقت فيها الصناعة وازدهرت منشآتها نجد قلة ظاهرة في موارد القصدير فلا يكاد يكون في ثرى القارة الاميركية الشمالية ركاز قصدير ، وفي اوربا موارد يسيرة لا تجهز تلك القارة باكثر من خمسة في المائة مما تستهلكه من هذا المعدن . وكذلك قل — على تفاوت — في النيكل والراديو م . فالمواقع التي يوجد فيها هذان المعدنان قليلة وهي في قارتين او ثلاث من القارات الست

ويخرج العالم الجيولوجي كرتلي مايدر — استاذ الجيولوجيا في جامعة هارفرد — من هذا البحث (راجع مجلة العلم « سينس » ٧ اغسطس ١٩٤٢) بان استغلال موارد الارض المعدنية المتاحة استغلالاً كاملاً يقتضي تنظيم حياة الامم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على اساس عالمي بدلاً من اكتفاء كل قارة وعزلتها لانه اذا كانت كنوز الارض في القارات لا تبيح للباحث القول بان هناك تفاضلاً بين القارات من هذه الناحية ، فليس هناك قارة واحدة تستطيع ان تجهز الشعوب التي تقطنها بالمقادير الكافية من جميع المعادن اللازمة للحضارة البشرية وأن تكفي جميع حاجات الناس . والاستغلال التام لموارد الارض لا يتم الا اذا ساهمت كل قارة بنصيب في سبيل الخير العام . والعالم الجيولوجي على رأي الاستاذ مايدر لا مفر له من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على اساس عالمي قاعدته التبادل الحر — تبادل المواد الخام والمصنوعة — أدنى الى تحقيق الخير العام من اقامة الحواجز بين القارات

جغرافيو العرب

وسوريا^(١)

لنقولا زيادة

كانت مسألة ادارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب . وهي مسألة كثيرة التعقيد لا ارتباطها بالطريقة التي تمَّ بها الفتح . لذلك اهتم أصحاب السير والمغازي ورواة الأخبار ببحثها ليستقر مقدار الجزية والخراج . ومن ثمَّ كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين . لكن الامر لم يلبث أن اختلف ، فاستقل كتاب بوصف الاقاليم ودرسها . وكانت المحاولات الاولى تدور حول التعرف الى البلاد وطرقها وخارجها . لذلك كان كتاب (المسالك والممالك) ، وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية ، تقريراً عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث . وليس من المصادفات ان مؤلفه كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس . وكذلك (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) ، لقدامة بن جعفر ، كان يبين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة

وقد شجع الاسلام الكتابة الجغرافية من ناحيتين أخريين : أما الاولى فجاءت عن طريق الحج . فالحج فريضة على المسلم ما استطاع اليه سبيلاً . ومن حق الحاج على سلفه ان يبين له خير الطرق للوصول الى مكة والمدينة ، ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها . وكان أثر هذا الامر كبيراً في حفز الكتاب الى تدوين ما لاحظوا ورأوا كابن جبير وابن بطوطة . وأما الناحية الثانية التي شجع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم . فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر الى آخر ، وكان علماءهم يحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها

ونحن اذا عرضنا المكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم ما يقرب من الاربعين من كبار المؤلفين الذين وصلت الينا آثارهم ، عدا الذين لم يبق من كتبهم شيء . وقد تأثرت الابحاث الجغرافية في عهدنا الاول بما وصل اليه اليونان من قبل ، شأن بقية الابحاث التي أخذها العرب عنهم . فكتاب الكندي المسمى (رسم المعمور من أقطار الأرض) هو ترجمة

لبطليموس اليوناني . وابن خرداذبة نقل بعض كتابه (المسالك والممالك) عن بطليموس أيضاً ثم أضاف إليه الخراج والطرق ، على ما ذكره هو في مقدمة كتابه على ان القرن الرابع الهجري يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النضج . فاليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي بلغوا درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل . وانتهى امرُ الكتابة الجغرافية في القرون الثلاثة التالية بأن كثرت المعاجم الجغرافية . فالبكري يعرفنا بكتابه بقوله (هذا كتابٌ « معجم ما استعجم » ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والامصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبةٌ محددة ، ومبوبةٌ على حُرُوف المعجم مقيدة) . ويقوت الحموي في طليعة اصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق . فكتابه معجم البلدان « خزنة علم وأدب وتاريخ وجغرافية : لانه اذا ذكر بلدًا أورد شيئاً من تاريخه ، ومن اشهر فيه او نسب اليه من الأدباء والشعراء والفقهاء . هذا بالاضافة الى مقدمة وافية في علم الجغرافية . والمعجم دقيق في معلوماته ، منظم في طريقته . وثمة ناحية أخرى من التصنيف الجغرافي حرية بالعناية . تلك هي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري . فقد وصلت اليها كتب فيها التاريخ والادب والجغرافية وغير ذلك . ومن هذه (نهاية الارب) للنويري و (صبح الأعشى) للقلقشندي و (ممالك الابصار) لابن فضل الله العمري . فهذه الكتب المعدودة في مقدمة خزائن المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية تمدنا بكثير من معلوماتنا عن الدول الاسلامية وغيرها في تلك العصور وتمتاز الكتب الجغرافية العربية وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر فيها ، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس . فاليعقوبي يقول عن نفسه إنه (سافر وحدث وسأل) وابن حوقل يقول (وأعاني على تأليفه تواصل السفر وازعاجي عن وطني الى ان سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها . وقطعت وتر الشمس على ظهرها) اما المقدسي فقد جال في البلدان ودخل اقاليم الاسلام ولقي العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف الى الادباء والقراء . وخطب على المنابر . وساح في البراري ، وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق وسجن في الحبوس ولزم التجارة في كل بلد ، وعني بالمعاشرة مع كل احد ، وهذا الامر — اي العناية بالرحلة في سبيل التعرف الى البلدان والكتابة عنها — ينطبق على العالم الاسلامي ذلك ان اكثر الكتاب عنوا بهذا الجزء من العالم . ومع ان بعضهم تحدث عن البقاع الأخرى ، فقد جاء هذا متأخراً

فالاصطخري يقول (ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها) . وابن حوقل يذكرنا

انه فصل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً وصقماً صقماً وكورة كورة لكل عمل . وهذان الكاتبان يبدآن الوصف بديار العرب ، لأن القبلة ومكة فيها ، وهي أم القرى ، وهي بلد العرب وأوطانهم ، ومثل ذلك المقدسي . أما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابه (لانه وسط الدنيا وسرة الأرض) ويذكر بغداد (لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها)

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد وهذه عندهم صحيحة دقيقة . والمستعمل عندهم الفراسخ والأميال للقياس والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل يقل عن الكيلو متر قليلاً . ويستعملون للمسافات الطويلة وحدة للسير هي اليوم . فسوريا مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً . وقد وجدت بعضهم كالادريسي يذكر (يوماً طويلاً) في تعيين المسافات

ومن النادر ان يعثر القارىء في كتب الجغرافيين العرب على احصاء يتعلق بعدد السكان ، او مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة معينة . على ان احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الأرض المترتب على ذلك دقيقة صحيحة . فالارقام التي يوردها قدامة ابن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ للهجرة . وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدرهم . وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الأحيان . فالبعض ذكر ذلك ، والبعض الآخر سكت عنه . وقد حذر المقدسي قراءه فذكرهم انه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودون وكتب . وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين . فمنهم « من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغريب وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها . ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة » . ويقول عن ابن التقي الهمداني انه (أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها ودفعةً يُسبكي وحيناً يضحك ويأهلي) . وهنا نلاحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائماً مبنياً على الدرس والاختبار منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل . كما نلمس هذه الناحية فيه اذ يقول عند تقرير خطته (وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان . مثل قولنا . لا نظير له زيد ان ليس مثله بته فان قلنا غاية فانها تعني في الجودة من الاجناس) ولما جاء ابو الفدا تناول في مقدمة كتابه (تقويم البلدان) من تقدمه من الجغرافيين بالنقد . فأظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الاسماء . وغيرهم لم يحقق الاطوال . أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال . والواقع ان كتابه يصح ان يُعدّ تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة)

وثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات : ذلك هو الادريسي . صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . ألف هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني وصاحبه لم يزر الممالك الإسلامية الشرقية لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار . ومن الطبيعي ان يختلف الكتاب في مقدار ما يخص كل منهم للقطر الواحد دون الآخر . فاليعقوبي يخص بغداد باثنتي عشرة من الصفحات . ويفصل عن العراق أكثر مما يفصل عن غيرها . بينما نجد المقدسي يعنى بالشام عناية خاصة لأنه يعرفها معرفة تفوق معرفته لغيرها من الاقطار

والامور التي عني بها جغرافيو العرب في وصفهم سوريا هي (١) اسمها وسبب التسمية . ويجدر بنا ان نذكر في هذا الصدد انهم أشاروا الى سوريا إنها الشام (٢) حدود الشام . وفي هذا نجد ما يشبه الاجماع على ان الحدود تمتد من بلاد الروم شمالاً الى حدود مصر جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى الفرات شرقاً . وهذه المسئلة ذات قيمة من نواح متعددة (٣) صفات سوريا البارزة وخصائص الاقليم ، من حيث المناخ والماء والارض والحبوب والثمار والزهور والحيوان (٤) اجناده أو أقسامه الادارية والموظفون وتوزيع الجيوش ومقدار الخراج (٥) مدنه وصناعاته وتجارته وتمركزها في هذه المدن

فأنت واجد ان ابن الفقيه ينقل عن عبد الله بن عمر (قُسم الخير عشرة أجزاء فجعل تسعة أعشار في الشام وجزء في سائر الارض) . وتمركز ملاحظة دقيقة للاضطخري عن فلسطين إذ يقول (وفلسطين مأوها من الامطار وأشجارها وزروعها اعذاء إلا نابلس فإن بها مياهاً جارية) . وتطالعك عند ابن حوقل هذه اللفتة عن أهل زُغَر بناحية البحيرة الميتة أو المنتنة ، انهم يلقحون كرومهم وكروم أهل فلسطين كما تُلغح النخل بالطلع الذكر . . . وبها (أي زغر) من عمل النيل والتجارة به ما لا يقصر عما يكايل من صنّاعه وعماله)

ودرس سوريا عند جغرافي العرب يجب أن يكون ابتداءؤه ما جاء في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي) فالرجل سوري يعرف البلد وأهله ، ومعلوماته ذات قيمة خاصة في درس الناحية الاقتصادية من حياة سوريا في ذلك الوقت . فقد تناول في كتابه سوريا مخددها وقسمها الى ست كور وعدد مدن الكور المختلفة ، ثم فصل أخبار المدن هذه مبتدئاً بالعواصم وانتهى من ذلك الى جل حال الاقليم . فهو يقدم البلد بقوله عنه (اقليم الشام جليل الشأن ديار النبئين ومركز الصالحين ومعدن البدلا ومطلب الفضلا . به القبلة الاولى وموضع الحشر والمسرى) ويعدد مشاهد الانبياء فيه ثم يقول (ومع كل هذا مشاهد لا تحصى ، وفضائل لا تحفى ، وفواكه ورخا وأشجار وأميا ، وآخرة ودنيا . به يرق القلب وتنبسط للعبادة الاعضا . . . ثم به دمشق جنة الدنيا . . . والرملة البهية

وخبزها الحواري ، وايليا الفاضلة بلا لاوى ، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهوا له سهل وجبل وأغوار وأشيا وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا ، ويسار وتجار ولباقة وفقها ، وكتاب وصناع وأطبا . لكن الرجل يلتفت الى أطراف الشام مما جاور الروم فيقول عنها (والاطراف قد خربت وأمر النغور قد انقضى عامة أهلها جهال أو غوغا لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعدا) . فاذا انتهى من هذا التقديم المقتضب عرض لتسمية الشام وتحديداتها ، ثم تناول وضعها الاداري فقسمها ست كور هي من الشمال الى الجنوب ، قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشرارة ، ثم عدد مدن الكور وذكر خصائصها وأعمالها وصناعاتها وتجارتها . وطريقته أن يبدأ بالعاصمة ثم ينتقل الى بقية المدن . (فدمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية بانيها خشب وطين أكثر أسواقها مغطاة ولها سوق على طول البلد مكشوف حسن . وهو بلد قد خرقتة الانهار وأحدثت به الأشجار وكثرت به الثمار مع رخص أسعار وتلج وأضداد لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها) . والمقدسي يصف الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقدس وصفاً دقيقاً . وسبب ذلك ، فضلاً عن منزلة هذه الأماكن الدينية ، ان المقدسي كان نبياً وكان جده كذلك قبله . فهو يحسن الفن المعماري ومن ثم كانت أوصافه هذه ذات قيمة خاصة لمؤرخ فن العمارة الاسلامية .

ويحدثنا المقدسي عن منطقة الحولة ومدنها وكانت تابعة لجند دمشق ، فيقول (وبانياس على طرف الحولة وحد الجبل وهي خزانة دمشق غير ان ماءها رديء والحولة معدن الاقطان والازهار ، وهي أغوار وأنهار) . أما طبرية قصبة الاردن فهي (ضيقة كريمة في الصيف مؤذية بها حمامات بلا وقيد ويقال إن أهل طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث ، وشهرين يقيمون أي يلوكون النبق وهو الدقيق المستخرج من لب النخلة والمقوي بالدبس ، وشهرين يناقون لأنهم يشغلون بطرد الزناير عن اللحم والفواكه ، وشهرين عراة من شدة الحر ، وشهرين يزمرون أي يمضون قصب السكر ، وشهرين يخوضون الوحل لكثرة في بلدهم) . والرملة وهي قصبة فلسطين (ليس أبرك من كورتها ولا ألد من فواكهها ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة وإدامات كثيرة ومنازل فسيحة) . ومن الطبيعي أن ينال جند فلسطين من بين أجناد الشام حظاً خاصاً من العناية . فالمقدسي ابنه . ومن ثم كانت عنايته بالصغير من بلدانه وقراه

وينتقل بعد ذلك صاحبنا الى جل شؤون الاقليم . فيتحدث عن طيب هوائه وتوسطه ، دون أن يغفل استثناء وسطه من الشراق الى الحولة ، فهو بلد الحر والموز والنخيل . ويلاحظ المقدسي امتداد غور الاردن جنوباً الى الحجاز . وثمة أمر ينتبه له الكاتب وهو

انك كلما اتجهت شمالاً في سوريا ازدادت الانهار وكثرت الثمار . ويذكرنا انه ليس في الشام نهر يسافر فيه . ويحدثنا في تفصيل ودقة عن تجارات الشام . فالكغد يرتفع من دمشق وطبرية ، والزجاج والسكر من صور . هذا الى أنواع الأقمشة المذكورة بأسمائها الدالة على تباين طرق صنعها . ثم يعدد اثمارها فيذكر الأجاص الكافوري والتين السباعي والقلقاص والهلبيون . ثم ينتقل الى مكاييلها وموازينها فالصاع والمد والوينبة والمكوك والفراة وأنواع الأبطال : موضحة

وتحدث المقدسي عن رسوم أهل الشام الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية . ويروي الأمثال الدالة على الطقس وأحواله . ويصف الأفرنة والطوايين وأنواع المأككل فيقول عنها (وبه « أي الشام » طبّاخون للعُدى والبيسار . ويقولون الفول المنبوت بالزيت ويصفقونه . ويبيع مع الزيتون . ويملحون الترمس ويكثرون أكله ويصنعون من الخرنوب ناطقاً ... ويصنعون زلاية في الشتاء)

ولعل المقدسي أول من لاحظ التوازي في طبيعة سطح سوريا . فهو يقسمها الى السهل الساحلي وسلسلة الجبال والأغوار وسيف البادية . وهذه على ما اعتقد من أدق ملاحظات المؤلف عاش المقدسي في القرن الرابع الهجري وكتب (أحسن التقاسيم) في أواخره . فالصورة التي نحصل عليها لسوريا هي صورة البلاد في زمن من أزهي عصورها وأزهر . ويحق لنا ان نغتنب لأن الحال أتاح لنا مثل هذا الرجل ليدون لنا مرافق سوريا الاقتصادية في ذلك الوقت

فاذا انتقلنا الى ياقوت لقينا في مؤلفه معلومات عن سوريا في الزمن الذي كان فيه الصليبيون يحتلون نصفها الغربي ، وهذه قيمة معجمه من الناحية التاريخية أما القرن الثامن الهجري فشيخ مؤلفيه الجغرافيين أبو الفدا . عاش أبو الفدا في أوائل زمن المماليك وأرخ لهم ، وكتب تقويم البلدان واصفاً فيه العالم الاسلامي بشكل خاص . ونالت سوريا من تحقيقه حظاً كبيراً . فهو ينقل في بعض الأحيان ما قاله المتقدمون ثم يعلق عليه بما يوضح الوضع في زمنه . ويتبع البحث العام بمجداول يفصل فيها عن كل مدينة الطول والعرض والاقليم ويضبط الاسم ثم يسوق أوصافاً وأخباراً عامة عنها . ولا يغفل ذكر مصادره

ليس من المستطاع ان يتناول المرء في مقال يشغل صفحات معدودة موضوعاً كهذا إلا من أوسع نواحيه ، وأكثرها شمولاً . فالمكتبة الجغرافية العربية واسعة كما ذكرت ، شاملة لأنواع من الدرس والبحث ، حرية بأن يتوفر الناس على درسها ويعنوا بتتبّعها . وأؤكد لحضرات القراء أن العمل فيها مرجو الفائدة واللذة

الهيكسوس

مطاردهم في مصر

للدكتور باهور لبيب

جازت هذه المرحلة أدواراً كثيرة أهمها : —

ما وصل إلينا من عهد الملك « سقن رع » الملقب « قن » أحد ملوك الأسرة السابعة عشر . والدور الذي لعبه ذلك الملك في مطاردة الهيكسوس مذكور في بردية سالبيه بالمتحف البريطاني ثم ما ورد في لوحة معروفة بلوحة كارنارفون بالمتحف المصري وهي لوحة خشب كتب عليها بالهيراطيقية ملخص الحرب التي دارت بين الملك كامس والهيكسوس ثم النص الذي يحدّثنا فيه القائد « أحمس بن أبانا » عما قام به الملك أحمس الاول في سبيل طرد الهيكسوس من مصر .

أما المصدر الاول فيحدّثنا عن أن الملك « سقن رع » كان ملكاً على إقليم طيبة وكان يعاصره ملك من الهيكسوس يدعى « ابوفيس » . وقد جمع ابوفيس في أحد الأيام كبار قومه وتحذّث معهم وربما كان الحديث يدور حول تدبير مؤامرة لاغتيال الملك « سقن رع » وما هو ذا جزء من هذه النصوص تدلنا ترجمته على ما ذهبنا اليه : « ... انقضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك ابوفيس الى الملك « سقن رع » بالعاصمة الجنوبية (طيبة) رسالة ولما وصل رسل الملك ابوفيس الى طيبة احضروا الى ملكها — فسئل أحد رسل الملك ابوفيس هذا السؤال : « لماذا جئت الى العاصمة الجنوبية ولاي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ » فأجاب ان الملك ابوفيس أرسلنا اليكم لتخبركم بأن دب البحر الساكن في بحيرة طيبة يمنع جلالته من النوم نهائياً وليلاً وصباحه يزعم أذني الملك » . « حزن الملك سقن رع وتألّم ولم يرد الجواب ثم عاد رسول الملك ابوفيس الى سيده . . . » ومن سياق الكلام نفسه نعلم انه على أثر ذهاب رسول ابوفيس الى سيده دعا سقن رع قواده ورؤساء حكومته وأخبرهم برسالة الملك ابوفيس فسكتوا جميعاً ولم ينطقوا بكلمة واحدة (وهنا سقط الاصل) ولم تكمل القصة التي كانت تحوي كثيراً من المعلومات التاريخية فن الجائز أن يكون رسل الملك ابوفيس عبارة عن أفراد عصابة أرسلها الملك لاغتيال

حياة « سقن رع » ولما خابوا في مهمتهم عادوا بعد أن اختلقوا الحيل ولفقوا الاسباب التي من أجلها أرسلهم ملكهم . كذلك نعلم أن جثة هذا الملك « سقن رع » وجدت في معبد الدير البحري وفيها آثار جروح نتيجة ضربات مميتة فهل معنى ذلك أن هناك مؤامرة دبرت لاغتيال هذا الملك العظيم ؟ أم سقط صريعاً في ميدان القتال ثم أنقذ أحد أتباعه جثته من العدو ؟ أرجح شخصياً الرأي الثاني وذلك لأن آثار الجهاد واضحة في جثة هذا الملك وهذا ما يحملنا على الظن أنه ناز على الغزاة وأوقد الحمية في صدور شعبه فقاموا قومة رجل واحد ليطردوا الهيكسوس من مصر . ويؤيد ذلك أيضاً أن خليفة هذا الملك وهو ابنه كامس واصل الحرب مع الهيكسوس

أما المصدر الثاني وهو لوحة كارنافون فقد عرفنا تفاصيلها عند ما تكلمنا في أول هذا المقال (مقتطف نوفمبر ١٩٤٢ صفحة ٤٠٥) عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية والمصدر الثالث عبارة عن نص القائد البحري أمحس بن ابانا (اسمه أبانا نسبةً الى اسم أمه وقد كان ذلك شائعاً عند قدماء المصريين مما يبين لنا مركز المرأة قديماً . أما اسم والده فقد كان « بابا » وقد كان بابا والد القائد أمحس هذا معاصراً للملك سقن رع)

وقد ظهر هذا القائد في المرحلة الأخيرة من مطاردة الهيكسوس وعاش في بلدة الكاب وقد بدأ حياته العملية أيام الملك أمحس الاول الذي عينه قائداً في إحدى السفن . وما يهمننا في نص هذا القائد ^(١) من الوجهة التاريخية في موضوع مطاردة الهيكسوس هو ما يأتي :
 «.... كنت أتبع الملك ماشياً عند ما ركب مجلته وعند ما حاصر الملك بلدة حات وعرت (هوارس) وقد أظهرت شجاعة على قديمي ماشياً أمام جلالته وبعد ذلك رقاني (جلالته) الى السفينة المسماة « خع ام من نفر » ثم حارب الملك على مياه قناة باجدكو الواقعة جهة حات وعرت (هوارس) ثم حاربت وأحضرت يداً وبُليت هذه المسألة الى كاتب سر الملك فأُنعِم عليّ بعد ذلك بذهب الشجاعة وحارب الملك في أجزاء مصر بعد ذلك الواقعة في جنوبي هذه البلدة (وقد اختلف العلماء فيما هو المقصود من البلدة التي حارب الملك جنوبيها فبعضهم يقول أن المقصود بها « بلدة هوارس » المذكورة في النص . والبعض الآخر يقول انها بلدة الكاب حيث مقبرة هذا الموظف الذي كتب لنا عن تاريخ حياته . وأرجح أنا شخصياً الرأي الثاني لأنه ليس من العقول أن تثور مصر كلها في هذا الوقت العصيب ضد الملك أمحس الاول فالمقصود إذن هي مدينة الكاب ويستنتج ذلك أيضاً من استمرار إغارة النوبيين على مصر . وقد جاء في نفس النصوص هذه المقبرة ذكر تلك الاغارة التي كانت في عهد الملك الذي

سبق أحس وهو كامس) « وبعد ذلك استولى الملك على مدينة حات وعرت (هوارس) وكنت قد احضرت من هناك غنيمة رجل واحد وثلاث نسوة أي اربع رؤوس (أسرى) » ثم يستمر النص فيقول : « وقد أعطاهم جلالته إياهم كعبيد » ثم حاصر الملك بلدة شاروهن مدة ثلاث سنوات ثم استولى جلالته عليها »

فمن هذا النص نستنتج محاصرة الملك بلدة هوراس عاصمة الهيكسوس ثم استيلاءه عليها ثم بعد ذلك مطاردته الهيكسوس في عقر دارهم ومحاصرته بلدة شاروهن بعد أن تعقبهم الملك إليها ثم استولى عليها بعد محاصرتها ثلاثة أعوام . وهذا مهم من الوجهة التاريخية إذ يبين لنا أن أحس الاول طرد الهيكسوس من مصر بعد أن استولى على عاصمتهم ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين

وبذلك نختم الجزء التاريخي الذي يهمنا في مطاردة الهيكسوس من نص القائد أحس بن أبانا وبحكم الملك أحس الاول ينتهي حكم الهيكسوس ويعتلي ملوك طيبة ثانية عرش مصر ويبدأ تاريخ عصر هام تحقق فيه توحيد مصر من جديد وهو ما نسميه « بعصر التوحيد الثالث » والمسمى « بعصر الدولة الحديثة » طبقاً لما هو شائع . وذلك لأنه على يدي أحس الاول تمت مطاردة الهيكسوس من البلاد المصرية وعلى يديه كذلك رجعت الى مصر الوحدة القومية لأن حرب مطاردة الهيكسوس لم تكن حرب استقلال فقط بل هي أيضاً فرصة اغتنتمها ملوك طيبة لكي يسيطروا على القطر المصري بأجمعه . وقد تم لهم ذلك على يد عميدهم الملك أحس الاول . وهنا نرى ظهور نفوذ طيبة السياسي للمرة الثانية بعد أن ظهر أولاً في أيام الدولة الوسطى وكان من أهم الأشياء في هذا العهد ليس الانتصار^(٢) على فراغة آخرين وإنما كان مطاردة شعب اجني

وبالرغم من المضار التي عادت على مصر من حكم الهيكسوس من تفكك في الادارة وتصدع الوحدة إلا أن المصريين جنوا من عصر هؤلاء الغيرين الفوائد الآتية :-

عند مطاردة الهيكسوس أخذت مصر تتطلع الى البلاد الاسيوية المجاورة لها ولا سيما فلسطين وسوريا وأصبحت جزءاً من مصر أي نظرت اليها كأجزاء لا يمكن الاستغناء عنها وبذلك أصبحت مصر أمة غير منعزلة عن باقي العالم فأصبح لها مقام دولي عام حدد في مراسلات أو معاهدات دولية . كذلك كان لغزو الهيكسوس لمصر مزايا لا يمكن انكارها ظهرت آثارها فيما بعد ظهوراً واضحاً بما أنتجه من رخاء فثلاً استفاد المصريون أشياء كثيرة أثرت في الصناعة المصرية ومنها صناعة العربات التي كانت سبباً في رقي وجلب أيادي عاملة كثيرة

(٢) راجع مقالنا المنشور في مجلة « كلية الآداب » العدد السادس من السنة ١٩٤٢ صحيفة ١٢٧

للمصريين كما ان المصري تعلم هذه الصناعة تعليماً دقيقاً وما يتبع ذلك من عمل الجلود وغيره للعربة وللجياذ وهناك كذلك صناعة أخرى وهي صناعة الأسلحة ولا سيما الخناجر فبذلك زادت أعمال الشعب المصري في هاتين الصناعتين

ومن مميزات غزو الهيكسوس لمصر انشاء جيش نظامي دائم مجهز بالأسلحة ومزود لأول مرة في تاريخ مصر القديم بالجياذ والعربات الحربية وذلك لأن الهيكسوس هم أول من أدخل الجواد والعربة في مصر وزيادة على ذلك استفاد المصريون أثناء وجود الهيكسوس في مصر استعمال الجواد والعربة في الحروب فتعلموا من الهيكسوس الفنون الحربية وطرق الكفاح المختلفة فتأروا في وجه الغزاة كما تقدم ثورة موفقة وعلى ذلك كان حكم الهيكسوس في مصر هو العامل القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محارباً مستبلاً طلب الحرية فناها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الغزو والحرب فتولدت في الشعب المصري روح الاستعمار . ومن الطبيعي إذن أن يتبع ذلك كثرة الوظائف الحربية والمدنية أي وجود أيادٍ عاملة في مصر وفي خارجها وقد استنتجنا ذلك من الألقاب التي كان أكثرها غير معروف قبل عصر الهيكسوس

وكان المصريون يفخرون بوظائفهم الحربية وقد أشارت الى ذلك نقوشهم وازداد تشجيع الملوك للقواد الحربيين فأعطوا الاراضي ومنحوا النياشين بل فرض أغلب ملوك عصر التوحيد الثالث على أولياء عهدهم دراسة الفنون الحربية في مدرسة أو كلية أنشئت خصيصاً لذلك في منف^(٣) بل أكثر من ذلك فقد فرض على أولياء العهود أن يتولوا بإدارة مصنع بناء السفن والاسطول (دار الصناعة) الذي أنشئ في هذا العصر على مقربة من منف فعلى مبييل المثل نعلم أن ولي العهد امنحبت ابن الملك تحتمس الثالث وهو الذي عرف فيما بعد باسم الملك امنحبت الثاني كان يشرف على إدارة مصنع بناء السفن والاسطول^(٤)

وكذلك كان من نتيجة غزو الهيكسوس مصر تأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تدفقت الخيرات منها على مصر كما تدفقت الاموال على بيت فرعون فعمّ الرخاء وازدادت موارد مصر كثيراً مما أدى الى تقدم المدنية المصرية

وكان من الفوائد والمميزات الكثيرة التي عادت على مصر بالخير أيضاً بعد غزوة الهيكسوس ظهور شبه انقلاب في السياسة وفي الحالة الاجتماعية بل وأدجت في اللغة المصرية نفسها كلمات سامية كثيرة

(جامعة فؤاد الاول)

نشيد الشجرة

أذاعت جمعية « أصدقاء الشجرة » ان نتيجة المباراة التي أعلنتها وتبرع لها فحامة رئيس الجمهورية اللبنانية من جميعه الخاص بماية ليرة أسفرت عن فوز الاديب الناشئ محمد يوسف حمود فحاز النشيد الذي نظمته موافقة نخامة الرئيس والجارزة فنهنته وفيما يلي النشيد الفائز

جنة في وطني من صباح الزمن
تملاً الأرض اخضراراً والسموات افتراراً
فالشجر يتعالى في الهواء
والثمر يتلأل كالضياء
ما أحب الشجرة
يمنح الدنيا شباباً أخضراً
وربيعاً أنورا وثماراً سكرًا وخيالاً
من جدودي الأول هذه الآفاق لي
ما أعزّ الأرض فيها يزرع الأجيال فيها
والزهور تنهّدي بالجمال
والطيور تننادي في الظلال
ما أعزّ الشجرة
يمنح الدنيا شباباً أخضراً
وربيعاً أنورا وثماراً سكرًا وجلالاً
إن لبنان لنا وبنياناً بعدنا
فازرعوا الآمال فيه شجراً يحمي بفيه
والخيال يتجلى في هواه
والغلال تتجلى في جنّاه
ما أعزّ الشجرة
يمنح الدنيا شباباً أخضراً
وربيعاً أنورا وثماراً سكرًا وجمالاً
[عن الفنون الجميلة]

فلسفة الاخلاق

في الاسلام

وصلاتها بالفلسفة الاغريقية

ليوسف كرم

لما كتبنا كلمتنا عن مؤلف الاستاذ كراوس في « جابر بن حيان والعلم اليوناني ^(١) » كان من اغراضنا تحييد الطريقة المقارنة في تاريخ العلم والفلسفة . ولم نكن نعلم حينذاك ان مطبعة الازهر تعمل على اخراج كتاب بالعنوان الذي توجنا به هذا المقال ، للاستاذ محمد يوسف موسى « مدرس الاخلاق والفلسفة بكلية أصول الدين » . فما إن وقع نظرنا عليه حتى اغتبطنا به اغتباط الذي يصيب شيئاً مما كان يتمناه . فقد أراد المؤلف ان يدرس ناحية من نواحي الفلسفة الاسلامية ، وان يرجع الى المصادر اليونانية التي استقى منها الاسلاميون . وله سابق عهد بالاخلاق وتاريخها ، تدريساً وتأليفاً ، وها هو ذا يخوض موضوعاً نعهده طريفاً اذا نظرنا اليه في جملته ومنهجه . ولا شك انه سيكون قدوة في منهج هذا المنهج ، فتظهر كتب في التاريخ المقارن للفلسفة تستقبل خير استقبال لاستعداد بيئاتها العلمية لها وشديد حاجتها اليها

الكتاب في خمس مقالات : الاولى في « التفكير الاخلاقي قبل عصر الفلسفة » أي قبل نقل الفلسفة الاغريقية الى العربية . والمقالة الثانية في « الحالة العامة في عصور الفلاسفة » اي الخلافة والادارة ، والحالة الاجتماعية ، والحالة العلمية . والمقالات الثلاث الباقية تدور على ثلاثة اعلام هم : ابن مسكويه كممثل للاخلاق الفلسفية الصريحة ، والغزالي كممثل للاخلاق الفلسفية الدينية ، ومحيي الدين بن عربي كممثل للاخلاق المبنية على التصوف (ص ٢٧) . الاختيار موفق ، والترتيب منطقي فضلاً عن انه تاريخي

يفتح المؤلف المقالة الاولى بكلمة مأثورة عن بسكال اولها قوله : « لا يوجد تقريباً شيء عادل او غير عادل الا ويغير من صفته تغير اقليمه » — ويشفعها بأخرى للتريه بنفس المعنى — فهو اذن يشير مسألة طالما كانت مدار بحث الباحثين ، وهي المسألة الاولى في الفلسفة الاخلاقية :

هل الاخلاق عرفية او طبيعية ؟ ورأيه الخاص « ان الضمير في جرثومته الاولى فطري عرف به الناس ، على اختلاف الأعصر والبيئات ، اصول الاخلاق ، وان اختلفوا في التطبيقات » (ص ٤) . وهو الرأي الصواب ، على أن نفهم بالضمير القوة العاقلة تنظر في الأفعال الانسانية كيف يجب أن تكون ، لا ضرباً من الغريزة العمياء او من الالهام الخفي كما ذهب اليه البعض . ويؤيد الأستاذ رأيه بايراد أقوال تدل على معرفة العرب للاخلاق ، فقد كانت لهم حكم وآداب ، فعرفوا وثافة الرابطة بين الطبع والأخلاق (ص ١٢) وعرفوا للتوسط فضيلته (ص ١٤) « ولم يفت الحكماء أن يوصوا بضرورة معرفة المرء نفسه » (ص ١٥) وقالوا بمحاسبة النفس (ص ١٦) « وعرفوا في جاهليتهم واسلامهم اصول الفضائل وفروعها .. وكانوا يستوحون في ذلك كله الدين : قرآنه وحديثه ، والادب : جاهليته واسلامية ، والحكم القديمة : هندية وفارسية ، والديانات السابقة اليهودية والمسيحية » (ص ١٧) « وكانت الغاية العليا ... عندهم ، سعادة الآخرة وما وعد الله في جناته » (ص ٢٢) .

الاستشهاد هنا مأخوذ عن العرب جملة ، جاهليين واسلاميين ، تتداول اقوالهم ويتخلل بعضها بعضاً . ولكن وضع المسألة يقتضي منهجاً آخر : كان حريّاً بالاستناد ان يقسم الكلام الى جاهلية واسلام وان يفيض في دراسة الجاهلية ويناقش بسكال ولتريه بما عرف عنهما من حكم ونظم وعادات واخبار ، فيبين لنا ما يرجع الى الفطرة والطبيعة ، وما يمكن ان يعد « أخلاقاً قبلية » أملت ظروف الحياة ونزوات النفوس . انه لو فعل ذلك لجاء استدلاله أدق وأوقع . لسنا نزعم ان عرب الجاهلية كانوا بدائيين ، وان عقائدهم تظهرنا على الفطرة الخالصة فتصلح دليلاً قاطعاً على فطرية الاخلاق او عرفيتها ، والمؤلف يذكر انهم كانوا على اتصال بالأمم المحيطة بهم واقفين على اشياء كثيرة من آدابها ودياناتها . كل ما نريد ان نقول هو ان ما استساغته عقولهم البدوية الحرة يمثل الفطرة الى حد كبير ، وان هذا المنهج هو على كل حال الجدير بالاتباع

وكان حريّاً بالاستناد أن يغفل المقالة الثانية بأكملها . فقد اعتقد ان « لاغنى لنا عن دراسة سريعة للعصور التي ظهر فيها الفلاسفة الذين نحن بسبيل دراسة مذاهبهم الاخلاقية ... لنفهم العوامل التي وجهتهم ودفعتهم » (ص ٢٧) . فرسم لنا صورة قائمة لتلك العصور مليئة بالفتن والدسائس من رجالات الدولة والامراء ومن يليهم بعضهم لبعض ، وبمفاسد الاخلاق في المجتمع عامة ، حتى اذا ما بلغ الى الحديث عن الحياة العامة قال انها كانت زاهرة زاهية . أليس هذا الازدهار ينطق بضعف تأثير المفاسد السياسية والاجتماعية او عدمه في رجال العلم واوليائه ؟ واذن فقد كان الكتاب في غنى عن هذا الفصل التاريخي . وفي الواقع

لم نرَ للعصر تأثيراً في واحد من اولئك المفكرين ، اللهم الاً من الناحية العلمية ، من ناحية الكتب الموضوعة بالعربية أو المنقولة عن لغة اجنبية . هذا الى ان موضوع الكتاب خاص ، هو فلسفة الاخلاق ، فهل يقدم كل كاتب بين يدي موضوعه الخاص بحثاً تاريخياً عامّاً ؟ وان الاستدلال التاريخي عمل دقيق للغاية ، فان الجمع في صحيفة واحدة بين حوادث وقعت وأوامر صدرت قد لا يمثل حياة العصر تمثيلاً صحيحاً ، اذ قد تسيّر الامة سيرتها بالرغم من الأوامر والحوادث ، وهذا ما كان بالفعل في الاسلام ، وما كان في الغرب في اثناء العصر المتوسط حيث حُرمت دراسة ارسطو مرة بعد اخرى فما كان الا أن تزايد الاقبال عليه واشتد حتى صار « المعلم الاول »

اذا أقبلنا على المقالة الثالثة المخصصة لابن مسكويه (٣٣٠ - ٤٢١ هـ) رأينا المؤلف يترجم له ثم يشرح آراءه في الاخلاق فيذكر تعريفه للخلق وتقسيمه اياه « الى ما يكون طبيعياً وما يرجع للعادة والمرانة » ويقره على الرأي الذي انحاز اليه وهو اننا قابلون للتخلق بالأخلاق المختلفة . لأن الواقع يشهد بذلك ولأن الرأي المخالف « يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل ، والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين » (٥٣) . وهذا في منزلة وضع الحرية في أصل الاخلاق . غير أن المؤلف يأخذ على ابن مسكويه « عدم استقرار فكره » اذ يراه « يزيغ قول الرواقين ، ويتبعه بتزييف الرأي المقابل ، ثم يحكي رأي جالينوس ، وأخيراً يتعرض لرأي ارسطو ، فما رأيه الخاص ؟ » (٥٣ - ٥٤) والذي تبينه بالرجوع الى « تهذيب الاخلاق » أن تزييف الآراء حكاية عن جالينوس ، وان ابن مسكويه على رأي ارسطو ، كذلك يرميه « بالتناقض او بما يشبهه حين جعل من الخلق ضرباً يكون طبيعياً من اصل المزاج ، ثم ذكر ان كل خلق ممكن تغييره ، واذن فلا شيء بالطبع » (٥٤) . وعندنا ان التناقض يرتفع اذا ذكرنا ان المزاج الطبيعي ليس من الماهية حتى لا يتغير ، ولكنه حالة جسمية خاضعة للإرادة قابلة للتغيير ، وان على هذا التغيير يعمل الانسان في تربيته لنفسه ولغيره ، وان هذه المعاني كانت حاضرة لذهن ابن مسكويه ، ويورد المؤلف أقوال صاحبه في النفس وقواها ، ويردها بلا عناء الى افلاطون وارسطو (٥٥ - ٥٧) ويورد تعريفه للفضيلة بأنها وسط بين طرفين مردولين على ما قال ارسطو ، وتقسيمه اياها الى ثلاث تابعة لقوى النفس الثلاث على ما قال افلاطون ، وقوله بأن اعتدال هذه الفضائل (الحكمة والعفة والشجاعة) وانسجامها فيما بينها تكون فضيلة أخرى هي كمال الفضائل

الثلاث السابقات (٥٧) وهي العدالة على مذهب افلاطون أيضاً . غير اننا لاحظنا ان ابن مسكويه يأخذ العدالة أحياناً بالمعنى الذي أراده أرسطو حين جعل منها فضيلة رابعة قائمة في إعطاء كل ذي حق حقه في المعاملات ، فيختلط عليه الامر في بعض المواضع ، منها الاشكال الذي يورده عنه المؤلف (٥٨) وهو ان تنازل المرء عن بعض حقه للغير تفضل محمود مع انه يزيد عن الوسط والزيادة عنه كالتقصان خروج عن الفضيلة . يجب ابن مسكويه اجابة أولى يرد عليها المؤلف ، ويجب اجابة أخرى يراها المؤلف غير مقنعة كذلك ، ويترك الاشكال بغير حل . وحله ان التفضل أو الزيادة عن وسط العدالة بالمعنى الارسطوطالي هو الوسط بالاضافة الى فضيلة أخرى هي الاحسان داخلة في العدالة بالمعنى الافلاطوني ، وهي المحوطة في التفضل . فليس بصحيح ما يقول ابن مسكويه وأشكل عليه الامر من أن « الهبة النفسانية التي يصدر عنها التفضل هي نفسها الهبة التي تصدر عنها العدالة » (٥٨) . ان لفظ العدالة مشترك بين معنيين مختلفين . ويعود ابن مسكويه (٧٣) فيعد الظلم والانظام رذيلتين خاصتين لازمتين من وضع العدالة فضيلة خاصة على رأي ارسطو . فيأخذ المؤلف ذلك عليه استناداً الى التعريف الافلاطوني للعدالة . وهكذا يستمر سوء التفاهم بين ابن مسكويه وبين نفسه من جهة ، وبينه وبين المؤلف من جهة أخرى . ويستوفي المؤلف عرض آراء ابن مسكويه في السعادة والاجتماع والتربية ، ولا يجد مشقة في ارجاع هذه الآراء الى سوابقها عند اليونان

الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥) أعمق فكرياً وأوسع أفقاً وأغزر مادة من ابن مسكويه وقد حرص المؤلف على أن يستقصى آراءه في الاخلاق بالتفصيل فجاءت المقالة الرابعة ثلاثة أضعاف الثالثة . الضمير عند الغزالي فطري (٩٤ - ١٠٢) والعدالة تارة جملة الفضائل (١٠٨ - ١٠٩) وطوراً فضيلة خاصة (١١٦) . فاللفظ مشترك هنا أيضاً ، غفر الله لأفلاطون وأرسطو . والغزالي متصوف وفيلسوف ، فيسأل المؤلف وهو يبحث في معنى السعادة عنده (١١٧ - ١٣٢) : أي الفريقين أقوم سبيلاً للتصوفة أو النظار ؟ ويجب بأنه لم يبت برأي واحد للناس جميعاً بل جعل الحال تختلف بحسب الاشخاص والاحوال . أما لنفسه فقد ارتضى طريق الصوفية : « هم السالكون لطريق الله خاصة » ، والنور الالهي « مفتاح أكثر المعارف فمن ظن ان الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » . وعلى ذلك أفاض الغزالي في الزهد ، وأفاض المؤلف في تعرف حقيقة الزهد عنده وعلامته وفضيلته

ودرجاته وأقسامه والغاية منه ، حتى اذا ما جاء الى تعيين « المعين الذي استقى منه الغزالي » قال انه القرآن والحديث ، والفيناغوريون وأفلاطون وأرسطو ، والفارابي وابن سينا وابن مسكويه ، والراغب الاصفهاني صاحب « الذريعة الى مكارم الشريعة » ، والانجيل والمتصوفون . وهذه المناسبة يلوم الغزالي وقد « طوعت له نفسه أن يأخذ (في كتابه « معارج القدس ») ما سبقه به ابن سينا (في كتابه « النجاة ») فكرة وتعبيراً تقريباً دون أن يقف قارئه على مصدره » . ولكن يمكن الدفاع عن الغزالي بشهادة المؤلف نفسه : فقد قال من جهة (١٥٦) كثيراً ما أعربنا عن شكنا في نسبة « معارج القدس للغزالي » فاذا كان الكتاب منحولاً ارتفع اللوم . وقال من جهة أخرى (١٤٥) « ان مصدر الاثنين الاصيلي هو ارسطو » ، فعلى فرض صحة نسبة الكتاب للغزالي لم يكن ملزماً بالاشارة الى مصدره لانه انما أخذ أشياء لم تكن ملكاً خاصاً لابن سينا بل كانت شائعة بعد نقل كتب ارسطو . ومثل هذا الاخذ كان مألوفاً عند الغربيين في العصر المتوسط

ويحاسب المؤلف الغزالي حساباً عسيراً على اشاداته بالزهد ، ولكننا ندافع عنه في هذه النقطة أيضاً . يسأل المؤلف : « هل الغزالي بما دعا اليه من مذهب في الاخلاق جعل للزهد فيه رفيع الدرجات ، كان يرعى صالح الامة عامة أو صالح فئة خاصة ترجو الخير لنفسها وان أضر ذلك بغيرها » (١٦٦) . ثم يقول : « وان أسعد أيام أمم الغرب التي تتقاتل في سبيل استعمار الشرق ، وخصوم الاسلام وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، هو اليوم الذي يرون فيه المسلمين آخذين — لا قدر الله تعالى — بمذهب الغزالي فيصирون عدماً أو كالعدم في هذه الحياة » (١٦٩)

نقول : هذا وضع للمسألة خطابي أو جدلي ، على اصطلاح المناطقة ، وهذه خصومة خلقت من عدم . ليست المسألة مسألة صراع بين شرق وغرب — وكما كانت هذه الفكرة بعيدة عن ذهن الغزالي ! — ولكنها مسألة الانسان وغايته القصوى

فاذا ثبت ان آخرة الانسان روحية — وهذا ثابت عند الاستاذ — فقد صارت الدنيا بما فيها عدماً أو كالعدم وصارت الامة الزاهدة هي الراجحة السعيدة ، والامة الغالبة هي الخاسرة الشقية . الله أكبر لو وجدت أمة تجمع على التزام حدود الله ، وتذهب في سبيل الكمال ، ليس فقط الى حد ايثار العدالة على القوة ، بل الى حد ايثار الاحسان على العدالة . ان أبناءها يكونون ملائكة تمشي على الأرض ، ولعلمهم يصلحون الأرض ومن عليها ! على أن الغزالي لم يفرض الزهد على الناس جميعاً ، وقد سبق للاستاذ قوله انه ترك الحال تختلف ، فلا غبار عليه ان نصب الزهد مثلاً أعلى تُندب له الصفوة . بل ان للزهد معنى روحياً يجعله واجباً

على الناس جميعاً ، هو عدم التعالق بالدنيا مع ضرورة استخدامها ، وما التجرد المادي سوى وسيلة للكمال لا الكمال نفسه
ولسنا ندري كيف صحَّ عند الاستاذ ان زهد الغزالي « فقر وجوع وخمول وتوكل »
حتى رأى حتماً عليه ان ينكره

أما محيي الدين بن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) فمتصوف كالغزالي ، ولكنه فيلسوف من نوع آخر ، يذهب مذهب وحدة الوجود ، فيرى « ألاَّ موجود الا الله تعالى ، وان جميع الممكنات مظاهر له » (١٩٣) . فاذا تحدَّث عن الموجودات ، واذا ردها الى اركان أربعة هي : الله ، والعقل الأول أو الكلي ، والنفس السكية ، والجسم الكلي أو الهولي أو الهباء (١٨٤ - ١٨٧) فهما انه يتحدَّث بحسب الظاهر فقط ، وانه يصدر عن الأفلاطونية الجديدة (٢١٠) ما في ذلك شك ، ولا فرق بينهما ، حتى الفرق الذي يذكره الاستاذ حيث يقول : « الوجود في مذهب الأفلاطونية الجديدة حركة في خط مستقيم لا يلحق آخره بأوله ، بينما هو في رأي فيلسوفنا حركة مستديرة ، وكل شيء منه ثم اليه يعود » (٢٠٠ - ٢٠١) فقد قالت الأفلاطونية الجديدة بالعودة كما قالت بالصدور . ويقارن الاستاذ بين وحدة الوجود عند ابن عربي وعند الاشاعرة (١٨٨) ويعرف وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد (١٩٠) ويبين تأثر ابن عربي بالحلاج مع فرق بينهما (١٩٩) . ونستطيع ان نقول ان ابن عربي ، في ذهابه مذهب وحدة الوجود ، متمشٍ مع نظرية الصدور أكثر من الفارابي وابن سينا اللذين أخذاهما ثم جعلاهما لموجودات حقيقة ذاتية ، مع أن الصادر عن شيء صدوراً ضرورياً صادر عن ذات الشيء ومجانس له بالضرورة . وتتجلى عبقرية ابن عربي في تفصيل مذهبه ومحاولته تأييده بتأويل القرآن والحديث ، وقد أغرب في هذا التأويل أيما اغراب . نشبهه في ذلك بفيلسوف مسيحي ظهر قبله بأكثر من ثلاثة قرون ، جون سكوت اريجنس ، اصطنع الأفلاطونية الجديدة وألبسها ثوباً ملفقاً من آيات العهدين القديم والجديد وأقوال آباء الكنيسة ، وربما كان ابن عربي أكثر اغراباً منه . وقد لاحظ المؤلف انه « شرق في الكلام وغرب » (١٧٥) ، وانه « قادر قدرة فائقة » على التوفيق بين الآراء المختلفة (١٨٧) ، ولكن ليس يكفي القول انه حاول التوفيق بين مذهبه وبين الشريعة ، انه جرَّ الشريعة الى مذهبه

والى هذا ينتهي المؤلف حين يقدم على ابداء رأيه في الشيخ ، بعد تردد وتهيب ، فيقول : « يقوم مذهب ابن عربي على وحدة الوجود . . . وهذا الرأي لا يمكن ان يتفق مع الدين الذي يفرق تماماً بين الله والعالم . . . ولا يتفق كذلك مع العقل السليم الذي يأبى ان يجعل الله هو العالم كله حتى ما به من حيوان » (٢٣٣)

ويشرح الاستاذ آراء ابن عربي في الاخلاق ، فيبين مقصوده بالانسان الكامل (٢٠١) ويورد أقواله في النفس (٢٠٨ — ٢٠٩) وهي أقوال الافلاطونيين . ثم يبحث مسألة أصل الاخلاق : هل هي جبلية أو كسبية ؟ وهل هي قائمة على الشريعة ؟ فيعرض أقواله ويناقشها مناقشة دقيقة ، ويلاحظ ان القول بوحدة الوجود « لا يتفق واقامة الاخلاق على أساس وثيق . . . فما دام الله الذي اتخذني مظهرآ له هو الذي يفعل .. كيف يستقيم أن أكون أنا المسئول ؟ » (٢١٥)

ويذكر رأياً لابن عربي يبدو غريباً إذ يقول : « ان الذي وصل الى درجة المحبة (محبة الله) يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله بعد أن لازم زمناً طويلاً حفظها ! وليس بعد هذا خطر وضلال وفوضى في الاخلاق » (٢١٦) . وهذا رأي صادفناه عند بعض مدعي التصوف في غير ما ملأه ، وحجتهم ان المعول على الروح فلا خطر ولا أثر لأفعال الجسم ١ — ويشير مسألة ما اذا كان الله يحبنا لنا أو لنفسه (٢٢٥) . وأخيراً يعود فيؤخذ ابن عربي بمثل ما أخذ به الغزالي بصدد غاية الاخلاق فيقول : « ان مذهبه كله غايته القصوى السعادة الشخصية التي تكون بالاتحاد بالله . . . ما جدوى هذه السعادة للامة ان تأتت ؟ اللهم لاشيء إلا لذة عقلية ومنعة روحية يشعر بها من قدر له ان ينعم بها » (٢٣٨) وهل تعد تلك المتعة الروحية شيئاً قليلاً ؟ أليست هي غاية الانسان بما هو انسان ؟ ولاخوف منها على الشؤون الدنيوية في حدودها العقلية ، أي في حدود الاخلاق التي يعرفها الاستاذ ويدعو اليها

هل نحن بحاجة ، بعدما تقدم ، الى زيادة في القول للدلالة على قيمة الكتاب ومقدار ما وعى من مسائل عديدة دقيقة خطيرة ملجأها المؤلف بمقدرة وأسلوب جديرين بالاعجاب ؟ اننا نعد هذا الكتاب حدثاً ملحوظاً في انتاجنا الفلسفي الحاضر . وما التعليقات التي سمعنا لنفسنا بابدائها الا أمانى نرى الامتياز قيناً بتحقيقها ، أو مشاركة في النظر نعلم انه أول من يرحب بها . وانا لنهنته بهذا التوفيق ، وزرتقب بفارغ الصبر ما وعدنا به في آخر عبارة له من بحوث مقبلة

« المقتطف » — في باب المراسلة والمناظرة تعقيب على هذا النقد العامي من المؤلف

عوالم اخرى

كثيرة كأرضنا

يقول الدكتور جورج جامو^١ أستاذ الطبيعة النظرية في جامعة جورج واشنطن ان العلماء نفذوا من دراسة النجوم في أقصى رحاب الفضاء ودراسة طبيعة الذرة ، الى رأي جديد في مبدأ الكون

وأصحاب هذا الرأي الجديد يذهبون الى ان الكون كما نعرفه، ولد قبل نحو ثلاثة آلاف مليون سنة . وان الطاقة التي تولدت منها مادة الكون كانت محشودة في ذرات مشعة ، عند ما كانت النجوم ، المتفرقة الآن ، مزدحمة في نطاق ضيق لا تميز بينها ، فكانها جزيئات مادة مفرقة في قبلة ، فلما انفجرت القبلة ، انتشرت الجزيئات ، أي تفرقت النجوم واذا قيس عمر الأرض بعمر الانسان على سطحها كانت الأرض قديمةً بالغة القدم . وكان الرأي قبلاً انه اذا قيس عمرها بعمر الكون ، كانت الأرض حديثة التكوين . ولكن أصحاب الرأي الجديد يذهبون الى أن قدمها وقدم الكون نفسه من مرتبة واحدة ما عمر الأرض ؟ إن البحث الدقيق في الصخور المشعة أفضى الى القول بأن عمر الأرض نحو ٢٥٠٠ مليون سنة . وطريقة البحث كما يلي : — ان عنصر الراديوم يفقد طاقته فقداً بطيئاً فهو ينحل رويداً رويداً فاذا مضى عليه ١٦٠٠ سنة أصبحت طاقته في نهايتها نصف ما كانت في بدئها

والسبب في فقد هذه الطاقة معروف . ذلك بأن الراديوم يتحوّل الى شيء ليس راديوماً فلندعه بنفاية الراديوم . فاذا أخذت قدراً من الراديوم الصافي تحوّل نصفه في أثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صافي الى نفاية الراديوم . واذا فطاقة الراديوم قد نقصت نصفها لأن قدر الراديوم الصافي نقص نصفه

فاذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايته ، كان في الوسع ان نعلم مدى تحوّل الراديوم حتى أصبح فيه هذا القدر من النفاية . فاذا كانت النفاية نصف قدر المزيج — أي أن قدرها مساوٍ لقدرة الراديوم — عرفنا ان ١٦٠٠ سنة قد انقضت على انحلال الراديوم . فاذا كانت النفاية ثلاثة ارباعه علمنا ان عمل الانحلال مضى عليه ٣٢٠٠ سنة وهكذا

وما يعلم عن الراديوم من هذه الناحية يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد حدد العلماء مدى انحلالها وتحولها من شكل الى آخر . فعنصر الثوريوم يستغرق ١٦٥٠٠ مليون سنة حتى يتحول نصفه الى نفاية . وعنصر الاورانيوم يستغرق ٤٥٠٠ مليون سنة وفي قشرة الارض يعثر الجولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايته في صخر من الصخور . وقد ثبت ان مقدار النفاية كان في كل ما وجدوه أقل من مقدار الاورانيوم نفسه — اي أنه لم يمض على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفه الى نفاية

وبتحليل الصخور التي عثر فيها على الاورانيوم والثوريوم وجد العلماء ان عمرها اي (الصخور) هو نحو ١٥٠٠ مليون سنة . فاذا أضفنا المدة التي استغرقتها هذه الصخور قبلما تجمدت أمكن الحصول على عمر الارض . وقد قال اللورد رذرفورد إنه لا يمكن ان يزيد على ٣٤٠٠ مليون سنة . ثم اذا بحثنا في الشهب والنيازك وجدناها تؤيد ما تقدم . ففي بعض الاحيان يعجز الهواء عن حرق نيزك من النيازك فيسقط الى الارض جليوذاً يحدث في سطحها غوراً كبيراً . وقد وجد ان هذا الرجم الساقط يحتوي غالباً على عنصر الثوريوم او الاورانيوم كل مع نفايته . ومقدار هذه النفاية يمكننا من حساب الزمن منذ ما تحجر الرجم . هذا الزمن لا يمكن حسابه بدقة عظيمة ولكن ليس بين الحجارة التي امتحنت ما زاد عمره على ٢٩٠٠ مليون سنة منذ تحجره . ومعظمها من رتبة عمر صخور الارض اي نحو ١٥٠٠ مليون سنة فنستطيع ان نقول بوجه عام ان طول الزمن الذي انقضى على تجمد السيارات وغيرها من اجزاء النظام الشمسي لا يمكن ان يزيد عن نحو ٣٠٠٠ مليون سنة

هل النجوم أقدم من الارض ؟ وهل انفصال الكتل التي تألفت منها السيارات ، عن الشمس ، لم يتم الا في مرحلة متأخرة من النشوء الكوني ؟ وهل تم هذا الفعل مصادفة باقتراب شمس من شمسنا فأحدثت فيها مدّاً عظيماً تحولت مادته الى عطارد والزهرة والارض والمريخ والمشتري وما يليها وما يتبعها ؟

كان الرأي الغالب الى عهد قريب ان الاجابة عن هذه المسائل الثلاث بالاجاب . ولعلّه لا يزال الرأي الغالب . وقد خلص العلامة جينز هذا الرأي في كتيبه وفصوله في مجلتي « نايتشر » و « ساينس » فقال ما ملخصه : ان احتمال تألب عوامل مختلفة لاحداث نظام شمسي كهذا النظام بعيد جداً . فعلماء الفلك المحدثون يرون ان كتلة الشمس الأصلية الغازية كانت آخذة في التقلص لا سراع دورانها حتى أصبحت تميل الى الانشطار . والكتلة الغازية التي تدور

دوراناً سريعاً تميل الى الانشطار، لا الى تكوين مجموعة قوامها كتلة مركزية كالشمس وتوابع حولها كالسيارات . وهذا الرأي أثبتته جينز بالتجربة في معامل الطبيعة . وبينما كانت الشمس في هذه الحالة اتفق مرور شمس كبيرة قربها — أي في حدود فلك السيار بلوطو — وكانت سرعتها متوسطة فسبقت شمسنا او شمسنا سبقتها . فأحدث جذبها مدّاً في كتلة شمسنا وما زال هذا المدُّ يرتفع حتى بلغ درجة ، انتثر عندها مجاري من المادة اللطيفة ، وما لبثت هذه المجاري حتى تقلصت وأصبحت سيارات . ومضت الشمس الأخرى في طريقها . ونظام السيارات في مجموعتنا الشمسية ليس الاً أثراً من آثارها

وتألب هذه الحوادث غير محتمل حتى في حياة النجوم الطويلة . فان توزع النجوم في الفضاء شبيهٌ بعشرين كرةً من كرات «التنس» موزعة في فضاء كروي قطره ثمانية آلاف ميل . واقترب الشمس المذكورة من شمسنا هو في منزلة اقتراب احدى هذه الكرات من الأخرى حتى تصير على بضعة امتارٍ منها . ويرى ادلغتن ان احتمال وقوع اقتراب كهذا كنسبة واحد الى مائة مليون . فبحسب هذا الرأي تكون النجوم أقدم كثيراً من الأرض ، وتولد الأرض وسائر السيارات على النمط السابق ليس أمراً مألوفاً في الكون

ولكن الدكتور جامو يقول (في مجلة خلاصة العلم ، مايو ١٩٤٢) ان أصحاب الرأي الجديد يجيبون عنها بالنفي ؟ فهو يقول ان بحث مسائل الطاقة الشمسية بحثاً دقيقاً يحمل على القول بأنه لا يَحتمل أن يكون عمر الشمس أكثر من ثلاثة الاف مليون سنة ، فكأنها وُلدت هي والأرض في عصر واحد تقريباً . وخلاصة هذا الرأي أن الحقائق المعروفة عن عمر الأرض وعمر الشمس تشير الى أن كيانهما كما نعرفه الآن، لا يرجع الى أكثر من ألفي مليون الى ثلاثة آلاف مليون سنة . وان صورة الكون قبل ذلك كانت تختلف تماماً عن صورته الآن

ولكن اذا كانت الشمس والأرض توأمين كونيّين أفلا يجوز أن تكون أجرام أخرى في الكون أقدم من احدهما . هذا سؤال معقول ، ولكن الغريب ان الاجابة عنه بالنفي كذلك فالبحث الفلكي الحديث يشير الى أن الكون مردهُ أصلاً الى كتلة محشوقة انفجرت قبل ألفي مليون الى ثلاثة آلاف مليون سنة وأخذت أجزاؤها تتفرق . وقد بين الفلكي الأميركي « أدون هبل » ان المجرات البعيدة ، مغدّة في الابتعاد عنا وإحداها عن الأخرى بسرعة عظيمة ^(١) وقد قاس هذه السرعات

واستناداً الى بحوث هبل لم يعمر على علماء الفلك الطبيعي تعيين الزمن الذي كانت فيه

أجزاء الكون محتشدة في نطاق ضيق — نسبياً — فلا تُمَيِّز بعضها عن بعض . وهذا الزمن هو قبل ثلاثة آلاف مليون سنة

ومعنى هذا ، أن عمر الأرض من رتبة عمر الشمس ، وأن عمرها من رتبة عمر الكون كما نعرفه

أي أن الأرض انفصلت عن الشمس في الأيام الأولى من ولادة الكون كما نعرفه الآن ، أي في الزمن الذي انفصلت فيه الشمس من قطع الهيولى الكبيرة المنتشرة في الفضاء — أي أنه جاءت فترة في مستهل خليقة الكون — كما نعرفه الآن — كانت فيها كتل الكون والشموس المتولدة منها ، مندفعة في كل جهة ، فكانت الشموس تصطدم بعضها ببعض لأن النطاق الذي كانت تتحرك فيه كان ضيقاً ، قبل اتساعه بابتعادها بعضها عن بعض . والرجح أن الاصطدام بين الشموس كان كثير الوقوع

وقد تقدم أن علماء الفلك الحديث يذهبون إلى أن ولادة النظام الشمسي نشأ عن اقتراب شمس من شمسنا فأحدثت مدّاً كبيراً في سطح كتلتها بفعل التجاذب وما لبث هذا المدُّ حتى انفصل ، ثم تقلص وتكونت منه السيارات . ثم انهم يذهبون إلى أن بُعد الشموس بعضها عن بعض ، يجعل احتمال اصطدام واحدة منها بأخرى بعيداً جداً ولا يزيد على مرة في مائتي ألف مليون مليون سنة (١) . وهذه الحقيقة هي التي حملت علماء الفلك على القول بأن احتمال وجود مجموعات أخرى من السيارات كجملوعتنا بعيد

ويقيمون دليلاً على ما تقدم بأن ما رُصد من النجوم يشير إلى أن النجوم الزوجية في رحاب الكون أكثر من النجوم التي حولها مجموعة من السيارات (٢) . أما الآن ، فالتفسير الجديد ، يجعل احتمال تولد مجموعات من السيارات من شموس كثيرة احتمالاً غير بعيد . لأن الاصطدام بين الشموس — وهو الذي يحدث المد فتتولد السيارات منه — كان كثير الوقوع عندما كانت الشموس في نطاق ضيق . ويؤيد هذا أن عمر الأرض وعمر الشمس وعمر الكون كما نعرفه من رتبة واحدة ، أي نحو ثلاثة آلاف مليون سنة

فبحسب هذا الرأي ، يجب أن يكون في رحاب الفضاء وحول طائفة كبيرة من النجوم عوالم كثيرة كأرضنا وسائر السيارات التابعة للنظام الشمسي

(١) كتاب : درب التبان The Milky Way تأليف الاستاذين بارت وبرسيلا بوك جامعة هارفرد

(٢) فتوحات العلم الحديث (مقام الانسان في الكون) صفحة ٨٦ — ٨٧

المدخل

الى علم الحيوان

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ — ﴿تصدير﴾ لما أخذ علماء اللغة بتدوين الالفاظ العربية ، كانت غايتهم تفسير ما ورد في الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية ، وما غمض من كلم الاقدمين في شعر الجاهلية . وأما ما عدا ذلك فكان يُهمل ، ويشار اليه اشارةً خاطفةً كقولهم : نبات ، حيوان ، طائر ، سمكة ، هامة ، أو نظائر هذه الالفاظ التي لا تنفع ولا تضر

ثم لما ازداد العمران ، وتبحر الناس في الحضارة ، أرادوا أن يتحققوا بعض الامور ، لتفهم ما يقوم عليها من الخير والخير ، والجذب والدفع ، كقولهم : نبات ينفع لكذا ، أو لطرد المرض الفلاني . — وهذا حيوان ، سام ، أو مؤذ ، أو ما شابه هذه الاشارات المفيدة بعض الفائدة ، أو كل الفائدة ، حتى كان عصر الرشيد والمأمون ، فاذا بالناطقين بالضاد يحاولون اللحاق بأبناء يونان ، ليقفوا على أسرار الطبيعة ، وما في زواياها من الخبايا ، واذا بهم سبقوهم في أمور لا تخص ، فكان لهم القيد المعلي والسهم الاوفى

بقي ثم أمر لم يقدره كل التقدير ، هو علم الحيوان ، فان السلف لم يدققوا النظر في ما كتبوه ، ولا في ما دونوه ، إذ أهملوه بعض الاهمال ، ولما انتبه نفرٌ منا الى دراسته نسوا أموراً شتى ، كان عليهم أن يعرفوها معرفة تامة ، حتى لا يخطئوا فيها خبط عشواء ، وهو مما يؤسف له . وكنا قد نشرنا ، قبل نحو أكثر من ستين سنة ، في إحدى المجلات أو إحدى الصحف ، من غير أن نتذكر تذكراً جلياً ، ملاحظات تقييد من يعنى بدرس علم الحيوان عند العرب . وقد سُرقَت منا جميع الكتب والمجلات والجرائد التي كانت في خزائنا ، وذلك في الحرب العظمى الأولى ، فلم يبق منها ورقة في ٧ آذار (مارس) ١٩١٧ . وقد وقف عليها في وقتها كثيرون ، فاستفاد منها جماعة . وأما أغلب الناس ، فلم ينتفعوا بها البتة . وهانحن أولاء ندون الآن ما يحضرنا منها ، لأن الرغبة في إتقان هذا العلم ، اشتدت في معاصرنا ، في هذا العهد ومن ثم ، فان أرادوا أن يأمنوا العثار ، فعليهم أن يسلكوا الجدد ، وهم

لا يوقفون له إلا بعد معرفة ما يوصلهم اليه، ولا يوصلهم اليه إلا الوقوف على هذه الملاحظات التي هي نتاج دروس سنين عديدة

٢ - الملاحظة الاولى معنى الذكر والانثى * ان قول اللغويين : هذا الحيوان هو الضخم ، أو الكبير من الحيوان الفلاني ، وهذا الحيوان هو الصغير من الحيوان الفلاني ، وهذا ذكر الحيوان الفلاني ، وهذه أنثى الحيوان الفلاني ، لا يراد بالضخامة والكبر والعظم ما تفيدته كل لفظة من هذه الالفاظ ، ولا الذكورة ولا الانوثة ، نعم قد يكون ذلك بمعناها المؤلف وقد يراد بها أيضاً ضرب من الحيوان فيه شبه من الحيوان الآخر . فقد ورد (الذكر) بمعنى الضخم لا غير ، وان كان أنثى ، وقد وردت (الأنثى) بمعنى الصغير من الحيوان وان كان ذكراً ، لكن كل ذلك ليس من المستعمل في كل حين ولا في كل عبارة ، انما قد يرد هذا الاستعمال بعض الاحيان فيجب أن ينتبه له القارئ

و (الذكر) في علم النبات معناه الصلب منه . فقد قالوا مثلاً : الجُمَيْر : التين الذكر ، مع ان الواحد غير الآخر ، وان كانا من فصيلة واحدة ، إذ لكل منهما ثمر خاص به ، لكن خشب الجُمَيْر أصلب ، وأقوى ، وأبقى من خشب التين ، ولهذا قيل انه التين الذكر - وقالوا الأرض : ذكر الصنوبر ، مع انهما شجران يختلف أحدهما عن أخيه ويختلف ثمر الواحد عن ثمر الآخر ، انما الذي دفعهم الى القول بالذكورة هو صلابته لا غير ، لا بل رأوا الذكورة والانوثة في الحديد ، وسائر المعادن فاذا كان الحديد صلباً سمّوه (ذكراً) وإلا فهو (أنثى) في نظرهم . ويقال : (ذكور البقول) ما غلظ منها وكان ضارباً الى المرادة ، لكنهم لا يقولون اناث البقول ، بل (أحمرارها) : وهي ما كان بعكسها

والعجب كل العجب : انهم ظنوا ذكراً ما هو أنثى ، وظنوا أنثى ما هو ذكر . وأبناء المغرب لم يهتموا بهذا الوهم . فقد قال السلف إن اليسوب أمير النحل ، وذكرها ، والرئيس الكبير لها ، كاليسوب ، مع ان ليس للنحل أمير ، بل أميرة ، لكنها لما كانت ضخمة ، والضخم عندهم يسمّى (ذكراً) ، قالوا : هو أمير النحل . واليوم يظن العوام في جميع البلاد العربية اللسان ، ان ذا الحمة من الزناير هو الذكر . مع ان الحقيقة ان الانثى هي ذات الحمة . وليس للذكر حمة ^(١) أي إبرة

و (المذكر) من الطيب : ما لا يلون الثياب عند استعماله ، مثل المسك ، والعود ، والعنبر ، والكافور ، والروائح الطيبة الافرنجية العصرية ، التي لا تلون الثياب . وأما المؤنث

(١) يسمى الزنبور الذي لا حمة له أي الذكر : زمعاً وزان سكر . وصبيان العراق يعلقون بكراعة أو برجلة خيطاً ويلعبون به ، لانهم يأنسون بتزميعة أي بدنته ، وما أكثر الذين يلعبون بدوات الابرة لجلهم اياها في الظاهر

من الطيب فهو الذي يلون الثياب كالخلوق : والزعفران وكل ما يُسقى فيها أثراً للون^(٢)
 ٣ — الملاحظة الثانية : لفظ واحد لعدة حيوانات قد تأتي الكلمة الواحدة دالة
 على عدة حيوانات ، فلا يحسن بالاديب ان يحصر معناها بحيوان دون حيوان آخر ، فهذا
 سوء تصرف في اللغة ، وتحكم فيها ، والسكل يقضون عليك بأنك تتعدى حدود الحقوق
 وتجحف بها ، لأن هذا الاختلاف في المعنى ناشئ من اختلاف القبائل ، ولغاتها ، أو من
 اختلاف الربوع التي نزلوها ، فقد تعني الكلمة الفلانية كذا ولا تعني هذا المعنى في البلد الآخر
 (فالمرجان) مثلاً يعني في العراق كله ، وخليج فارس ، هذه الهنوت او الخرزات الحمر
 التي تنبت في البحر ، ويسمى بعضها (البُسْد)^(٣) . وكان معناها عند الأقدمين ، صغار
 اللؤلؤ أو اللؤلؤ عامة : وهي شديدة البياض ، وليس فيها أثر للحمرة ، وقد نقلها الازهري
 في تهذيبه بهذا المعنى ، وابو منصور امام أئمة اللغويين ، وهي بهذا المعنى تعريب اليونانية
 margarites . واما (المرجان) عند المصريين فعناه ضرب من السمك يكثر في بحر الروم ،
 وهو بهذا المعنى تعريب اليونانية pagros بيعض قلب وابدال ، كما لا يخفى
 فهل يجوز ان يقال بعد هذا : لا يعني (المرجان) إلا البُسْد ، أو (المرجان) هو
 اللؤلؤ لا البُسْد ، ولا ضرب من السمك ، أو (المرجان) ضرب من السمك لا غير ، فهذه
 كلها جنائيات على اللغة وعلى المتكلمين بها ، وعلى اهل البلاد المختلفة . زد على ذلك ان تحكك
 هذا لا يغير امراً من الناطقين بها ولا شيئاً من معانيها
 والعربية كثيرة الانفاظ الدالّ واحداً على حيوانات مختلفة . ونحن نذكر بعض الامثلة منها :
 (الماعز) الاسد ، والنمر ، والذئب ، لانه يعمل صيداً اي يلتمس
 (العيلم) : (بالعين المهملة) الضفدع ، والضبع الذكر . (الغيلم) : (بالغين المعجمة) الضفدع
 والسلحفاة الذكر . (العلجوم) : الضفدع الذكر ، والقراد ، والظبي الآدم ، والظلم والكبش ،
 والوعل ، والثور المسنّ ، والبطّة الذكر ، وطائر أبيض ، والشديد من الابل ، أو خيارها
 (الهجرس) القرد ، والثعلب ، او ولده ، والثيم ، والذب ، وكل ما يعسّس بالليل مما
 كان دون الثعلب وفوق اليربوع (وهذا الاخير يدل على حيوانات كثيرة)
 (الفرافر) : ولد النعجة والماعزة ، والبقرة الوحشية ، أو هي الخرفان والجمالان ،
 والذي يكسر كل شيء ، والغلام الشابّ والرجل الاخرف ، والفرس الذي يفرّ فرّ اللجام في
 فيه ، والاسد الذي يفرّ فرّ قرنه . والشواهد من هذا القبيل لا تكاد تحصى لكثرتها

(٢) هذه الفوائد لا ترى في المعاجم بل في معجمنا فقط

(٣) اني لا أهم كيف يؤلف معجم في الحيوان ولا يتعرض صاحبه لذكر (المرجان) بمعنى البُسْد ، أو
 بمعنى اللؤلؤ ، على ما في كتب متون اللغة . ولا يذكر في ديوانه (النعجة) ويذكر (الذبابة)

٤ — الملاحظة الثالثة : اقتباس العرب الفاظاً من الاعاجم * قد يستعير العرب الفاظاً من الاعاجم بمعناها ومبناها معاً ، وقد يستعيرونها بمبناها دون معناها ، وقد يستعيرونها بمعناها دون مبناها ، وقد يستعيرونها للغمثهم ويتصرفون فيها كل التصرف ، من زيادة وحذف ، من قلب وابدال ، من تصحيف وتحريف ، حتى ليتعذر على الباحث معرفة الاصل المأخوذة منه ، وعندنا على اثبات ذلك من الشواهد ما يقع في مجلد ضخمة ، ولا بد لنا من ذكر شاهد واحد على كل ما أشرنا اليه . فمثال الاول الفَنَك والقاقم والجندبادستر — ومثال الثاني : الهماي والزرجون والجريال — ومثال الثالث : القاعوسة (بمعنى النار) والآنيسة (بمعنى النار) والفاق (بمعنى الزيت المطبوخ) — ومثال الرابع : السيدتى والشفارج والنشا والأدرة والفيلة والبرشت والسوار ، — ومئات من الالفاظ لا تحصى ولا تحصر

٥ — الملاحظة الرابعة : قد يعرب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفة له * قد يعرب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفات له من دخيلة ، ومعربة وعربية . فالعرب عرفت البلح ومن اسمائه عندهم البُلت ، والمكففة ، والسستل ، وكاسر العظام ، ومع ذلك قالوا : الهُما والهُمائي والهاميون والفينة ، والثلاثة الاولى من الفارسية والرابعة من اليونانية — وقالوا الهزار وعندهم العندليب ، والعندليل ، والمزقة ، والمسهر ، وابوهرون . — وقالوا : الخشقاء وقد ذكرها الثعالبي في كتابه اللطائف ، مع ان السلف كانوا قد سبقوه الى اتخاذ اليفغر ، بياض مناة تحمية مفتوحة يليها غين معجمة ساكنة فراء وصحفوها (يعر) و (يعروا) و (يغروا) ^(٤) ولم يكتفوا بذلك . فتننوا في تصحيفها فقالوا : خشقاو ، وخشفاء ، وخشناو ، وقطاس ، وقطاش ، وقوتاس ، وقوتاش ، وقوطاس وقوطاش ، الى ما لا يحصى ذكره . وقالوا فيه ايضاً شور الغرز ، وجاموس الغرز . فيجب طرح المصحف ونبذه نبذ النواة ، وحفظ غير المصحف ، اي حفظ الرواية الصحيحة ، وان كثرت المترادفات ، أي انه يؤخذ يعر وخشفاء وقطاس ويهمل ما بقي من تلك المصحفات . لأن ما صحح من الكلام كتبته ، ولغات أهالي بعض البلاد والقبائل يختلف بعضها عن بعض ، ويجب ان تراعى حقوقهم . اما سبب كثرة المعرب ، فلان

(٤) جاء في احد المعاجم الافرنجية العربية في علم الحيوان ان (اليفر) أو (اليعر) الواردة في الديميري ما هي إلا تصحيف (شفر) وهي كلمة فارسية بمعنى الزبزب أو الغريرة ، وزاد صاحبه على ذلك قائلاً : « أو من خطأ الناسخ الاول الذي أخذ عن الديميري » اه — ثم نقله آخر مع هذا الوهم نفسه في الكلمة الانكليزية Badger . وليس هناك وهم . ولقد نشرنا مقالة في مجلة (المقتطف) التي تصدر في مصر (١٠٠ : ٢٤٥) ان اليفر (بالعين المعجمة) وصحفت (بالعين المهملة) هو الحيوان المسمى ياك وهو القوطاش والقوتاس والقوطاش والخشقاء وكلها من تحقيقاتنا ولم يسبقنا اليها أحد : وقد جاءت اليفر مصحفة في كتاب مؤانسة والامتع (١ : ١٤٤) بصورة (بعروا) وهي لم ترد في كتاب عربي

واحد منهم يحبل ما وضعه من تقدمه ، او يحبل الفاظ الناطقين بالضاد . أو أنه غير واقف على ما عرفه الأسبقون في الموضوع الذي يعالجه ، الى غير ذلك من الأسباب التي قد تخفى علينا دون ، لأننا أصبحنا في بيئة غير بيئة من جاء قبلنا

٦- الملاحظة الخامسة : يجب ان يكون تأويل المعرب مجرداً من الهوى * كثيراً يسوق الهوى صاحبه سوقاً بلا هدًى ، فلا تكن من أهل الغرض ، لئلا تعمى وتعم . فقد ذكر لي أحد محبي الفرس ان الجريال فارسية ، مركبة من كلمتين ، من (جر) وأصلها (زر) أي ذهب . و (آل) أي لون . فيكون معناها ما كان لونه لون الذهب . ولهذا ربحها العرب بقولهم : « الجريال بالكسر : صبغ أحمر ، وحمرة الذهب ، وسُلَافَةُ العُصْفَر ما خَلُصَ من لون أحمر وغيره ، والخَمْرُ أو لونها ، كالجريالَ فيهما (القاموس) — ان الجريال من أصل يوناني هو korallion وهو المرجان ، أو البَسَد ، فيكون معناه : لذي لون أحمر كالمرجان ، فيصح على الجامد والسائل

أما المأخوذ من الفارسية وهو بهذا المعنى أو يكاد ، فهو الزَرْجُون فقد جاء في قاموس شرحاً لها : « الزرجون : محرقة : الحمر ، والكرم ، أو قضبانها ، وصبغ احمر » الكلمة منحوتة من (زر) الفارسية بمعنى ذهب . و (كُشُون) أي لون . فيكون معناها كان لونه لون الذهب ، فيصدق على الحمر والصبغ الأحمر

٧- الملاحظة السادسة : قد يمين أصل الكلمة فروق الحيوان * يظن بعضهم ان لا فائدة من درس أصل الألفاظ الدالة على الحيوان . وهذا وهم كبير ، لأن درس أصل الكلام يهدينا الى ان هذه المترادفات هي غير مترادفة في الحقيقة فالشفتين ، والترغل ، والترتور القمري ، والنواح ، والفاخنة ، وساق حر ، والصُلُصُل ، والآنن ، هي كلها حمام ، الا ان واحدة ، تختلف عن اختها ، بالنظر الى الأصل المأخوذة منه

(فالشفتين) كلمة مصرية الأصل من (شفن) وقد وجدت مكتوبة بجانب صورة الشفتين) الذي معناه الحمام ، أو لنوع منه صغير الحجم ، وكثيراً ما يقيم فوق النخل في يار النيل ، والشفتين بضم الشين ، وكذا يلفظه أهل بغداد . وكذا ضبطه صاحب التاج في مستدرك شفن ، فهو بخلاف ما جاء في بعض الكتب كحيط المحيط ومن نقل عنه . فقد ضبطت فيها بالكسر وهو غلط . قال ابن البيطار هو المسمى باليونانية trugôn, onos و (الترغل) بضم التاء واسكان الراء وضم الغين وشد اللام ، ويقال (الدرغل) بالدال في مكان التاء ، (والطرُغُل) ايضاً أي بطاء في الأول و (الأَطْرُغُل) أي بضم الهمزة واسكان الطاء ، وضم الراء والغين ، وفي الآخر لام مشددة ، ولم يذكر منها القاموس والتاج

الأخيرة فقالا : « بعد الضبط المذكور الاطرغلات : الدباسي والقباري والصلاصل ذوات الاطواق. قال الأزهرى : ولا أدري أمعرب أمعربي » اه . قلنا هي تعريب اليونانية trugôn التي مرّ ذكرها . وكان يجب ان تحتم بالنون فحتمت باللام ومثل هذا الابدال كثير في المعرب (والترتور) كلة لاتينية تعريب turtur ومعناها الفاخنة ، او النوّاح

وأما (القمرى) فنسب الى جزيرة من جزر القمر ، والواحدة قرية . قال ذلك شيخ الربوة في ص ١٦١ من كتابه نخبة الدهر ، وهذه عبارة معدداً جزر القمر : « وقرية ، واليها ينسب الطير القُمُريّ ، وهو نوع من الحمام »

قلنا : والقمرى يمتاز عن سائر المطوّقات بأنه يهدر ليل نهار بخلاف سائر الانواع جميعها (والنوّاح) كشدّاد هي الكلمة العربية الصحيحة الوضع ، فهو ينوح ويطرب لغناء نفسه على ما قالوا ومن اسمائه العربية الوضع : (ساق حرّ) قال ابو حاتم في كتاب الطير ، عقيب ذكر القمرى : إنه يضحك كما يضحك الانسان وساق حرّ كالقمرى يضحك ايضاً ، وسمي بصياحه « ساق حرّ » (عن تاج العروس) وقال في المخصص (٨ : ١٥٣) : « لا تأنيث له ولا جمع » — ويزيد على ما تقدم ان الذي يضحك هو الانثى ، ولهذا سمي بلسان العلماء turturisorus اي الترتور الضحكة لكثرة قهقهته وضحكه والترتور يقع عندهم على الذكر والمؤنث . إذن ليس كل ترتور ، أو لا كل فاخنة تسمى بلسان العلم « الترتور الضحكة » بل القمرى فقط ، دون سائر المطوّقات . فليحفظ وليقيّد

والفاخنة عندنا من اليونانية الاتيكية phatta بهذا المعنى عينه . وقد أقام اليونان السلوقيون في العراق مدة ١١٧ سنة وأبقوا شيئاً من علومهم ، وآدابهم ، ولغتهم . وهذه الكلمة ترى في العراق منذ عصر اليونانيين المذكورين الى يومنا هذا ، فهي اذن من أقدم الالفاظ في هذه الديار ، وهي خاصة بالعراق ، ومعروفة فيه ، دون سائر البلاد العربية اللسان ومن أسماء الفاخنة : (الصلصل) وهي تعريب تُرْتُور الترتور اللاتينية ، فعربت بصورتين ، صورة اصلية ، وهي (تُرْتُور) وصورة على لثغة جعل التاء صاداً اي (صُلْصُل) قال في المزهى (١ : ٢٧٠) (طبع بولاق) : جعل الصاد تاءً لثغة عند العرب ، من ذلك : انحصّ ورق الشجر وانحت إذا تناثر وعلى ذلك نقل الغريون كلة صور الى تور Tyr من مدن فينيقية القديمة

ومن انواع الحمام : الان بهمة مضمومة ، فنونين والاولى منهما مفتوحة . وهو كالحمام إلا انه أسود ، له طوق كبسسي ، احمر الرجلين والمنقار . صوته أين : اوه : اوه . (تاج العروس) وله مطوّقات أسماء آخر ، فاكثفينا بالاشارة الى اشهرها في الكتب . خوفاً من احداث الملل في النفوس .

الدمعة

في صباح يوم من أيام الربيع الدافئة ، ذرفت مقلة الفجر دمعة صافية ، أصابت ورقة تينة يابسة على جانب طريق موحش في سبب مقفر . دمعة نقية متلاثة تظهر للقريب ماسة براقة وللبعيد نجمة لماعة

مرَّ بها ملك يحف به الجند والاتباع ، فقال وقد راقه منها ذلك الاشعاع ، إن في تاجي من الجواهر ما لا يثنى ، وفيه من لآلئ الشرق الساحرة ما يزي بدموع غوان صهرها الحب الدفين . ولكنني أتخلى عنها كلها مسروراً لو يتاح لي أن أعراض منها بهذه الدرة اليتيمة لأجعلها شعاراً للملكي العظيم ومجدي الأثيل سمعت الدمعة السماوية ما قال الملك وظلت شائخة ولم تحفل بتاجه ودرره .

ومرَّ بها صليبي مدجج بسلاحه وعلى جسمه درع ذهبية الزرد فقال وحق الصليب المقدس لا يليق بدرة كهذه إلا مقبض حسامي فأسير بها في ساحات الجهاد ومن نصر الى نصر حباً بفادي الأنام ومتى رجعت أجعلها قلادة في عنق حبيبي فتكون عوذتي في جهاد الحروب ونصيري في امتلاك القلوب

سمعت الدمعة السماوية ما قال الصليبي وظلت صامته يمينها الرجاء ولم تعباً بوعوده وعظمته . ومرَّ بها شيخ بقافلة يحمل ما خف وغلا من الكنوز فصاح يا لأمرائيل ما كنت أحسد ملكاً على ما حشد من أموال ولا بحراً على ما حوى من لآلئ ، ولكنني تجاه هذه الدرة الفريدة أرى يدي الشحيحتين تجودان ولا أسف بكل ما أملك من كنوز وتحف

— سمعت الدمعة السماوية ما قال اليهودي ولم تأبه لكنوزه وتحفه ، وكانت تحت التينة عوسجة صغيرة زاوية تشرئب مدلة بحقها من رحمة الله فقالت تعالي أيتها الدمعة السماوية روي جفاف تربتي بحق الاله فكما ضرعت اليه تزيدني شمس جفافاً وأنا بين الصخور لم أسمع زقزقة العصافير ولا لامست نعومة الاعشاش اغصاني ، اذ لا غصن لي يجثم عليه العندليب ولا ظل لي يؤمه بحبيبه الحبيب ، فأغثيني أيتها القطرة السحرية ان لي بك غنى عن كل مال

سمعت الدمعة السماوية ما قالت العوسجة فاختلفت وسقطت منعمة صامته وبعد قليل من الزمن رأى الناس معجبين ان الحياة قد عادت إلى تلك العوسجة الذوية فأورقت وأزهرت زهوراً كجراح المصلوب وجاء النحل يمتص الشهد منها كما يجنيه من أزهي الورد

(« نقلها الياس زعرور : في شلة الصبغة »)

فضائل الصلاة

الصحية

للدكتور شوكت موفّق الشطي

— ٢ —

ج — نظافة الأذن والوضوء : من المعلوم ان الجلد في صماخ مجرى الأذن يفرز بعض مواد دسمة صفر اللون هي الآف او الصملاخ (وسخ الأذن) وتشبه وظيفة هذه المادة وظيفة المخاط في الانف من ضبط الغبار والجراثيم التي تدخل بالهواء فتتنظفه غير انه ان أهملت في هذا المجرى تراكت وكونت مع ما يضاف اليها من الاقذار الخارجية سداة كبيرة قد تسد المجرى كله وتسبب الصمم لحاملها فلذلك يجب عدم اهمالها . ولا يجوز أيضاً اهمال نظافة الأذن خارجاً ولا سيما الكفاف أي صيوان الاذن لان تلك الإيمات^(١) والغضون المنتشرة فيه يجتمع في وهادها كثير من غبار الهواء وأقذاره ولا سيما في الزوايا المنخفضة منها وهذا ما يدعو الوضوء الى ملاحظته فتنظيفه

د — نظافة العينين والوضوء : لا جرم ان للعينين في الوجه المقام الأسى وهما مصونتان بحصون طبيعية قوية كالحجاج والحواجب والأهداب والأجفان وما فيها من الدمع ذلك السائل المطهر الجزيل النفع . وكما ان العين بازوائها بين حصونها هذه ، تكون مصونة من شر كثير من الطوارئ وقد تكون بذلك عرضة لاجتماع كثير من الاقذار حولها بما يتراكم في زواياها من غبار الهواء وبقايا الدمع او بعض مفرزات العين التي تجتمع في الآفاق وتكون تلك المواد الخاصة المعروفة بالرمش أو العمص وهي مواد لاشك في انها اذا أهملت كانت مسبباً في تخريش تلك الناحية وبؤرة للاختار بتأثير تلك الجراثيم وكميناً لعوامل الرمد المختلفة التي يجلبها الهواء أو بعض الحشرات التي تستطيب ذلك من الاقذار كالذباب وفي ذلك ما فيه من الضرر والقذارة ويكفي في نظافة العينين خارجاً نظافة الوجه اجمالاً بغسله بالماء مع العناية بنظافة تلك الزوايا وهذا ما يتحقق بغسل الوجه في الوضوء

هـ — نظافة الانف والوضوء : فلما تختلف نظافة الأنف عما مرَّ في الأذن لأن وظيفة المخاط في هذا العضو المهم كوظيفة الأنف في الأذن أو أعم وأكثراً . وترفع هذه المواد بالاستنشاق فلا تستنار أو المخط وهذا ما يدعو إليه الوضوء ويتم به يتضح مما تقدم ان الغسل والوضوء يحققان أقصى درجات النظافة الواجب اتباعها في نظافة الجلد والأيدي ونظافة الوجه والفم والأنف والعينين والأذن والقدمين وهذه النظافة أهم الأسس التي قال عنها المعمرون والخبراء من الأطباء بأنها كانت وسيلة تميرهم وسبب دوام صحتهم ونشاطهم

و — فوائد الغسل العامة : ما الغسل الذي فرضه الاسلام في احوال كثيرة الاستحمام ووسيلة لنظافة البدن نظافة عامة ويكون بمياه باردة ودافئة وحارة

اولاً — الغسل بالماء البارد : حرارة الماء فيه بين (٥ — ١٥) له فعل منه عام يخفض الحرارة ويمدّل النبض والتنفس ويزيد في الاحتراقات الرئوية ويظهر أثره بادئ ذي بدء برعدة ثم يبهت الجلد ويقشعر البدن ثم لا يلبث هذا كله أن يتبدل ، فيعود للجلد لونه وتقف الرعدة وتزداد سرعة النبض المتباطيء وينشط التنفس . وأسباب ذلك هو ان حرارة الماء المنخفضة عن حرارة البدن تسبب تقبض العروق الشعرية المنتشرة في الجلد عندما تصيبها ، وبسبب تلك الرعدة يندفع ما فيها من الدم وهلة الى الداخل فيكثر العمل على القلب ، فيضطرب لذلك ويدفع ما فيه الى الرئة عاجلاً دون تهيؤ لذلك فتضطرب ولا تلبث ان تتأهب له بالسعة والنشاط ، ثم تعود أعمالها وأعمال القلب الى حال طبيعية اذا كان هذان العضوان سليمين ومجدان في العمل ، بحسب الطاقة ، مدة طويلة أو قصيرة ، ويحس الشخص عند الفراغ من الغسل بحرارة عامة فيحمر الجلد ويتسع التنفس ويمتلئ النبض ويزداد نشاط العضلات وقوتها ، كل ذلك من رد الفعل المفيد الذي يحدث أثناء هذا الاستحمام ويستمر فيما بعده . ويمكن تسهيل هذا الارتكاس بذلك الجلد أو بالتحرك حركة مارياضية خفيفة وأحسنها الصلاة او المشي السريع أو ما شابه . ويحسن الاغتسال بالماء البارد للشبان والكهول الأصحاء فيفيدهم قوة ونشاطاً على أنه يشترط ان لا تكون مدته طويلة أي دقيقتين أو خمس أو عشر دقائق لا أكثر وان يسبق بحركة معتدلة ويعقب بمثلها ولا يجوز الاغتسال بالماء البارد للعصبين وأصحاب الأمراض القلبية والكلوية والضغط الشرياني والاحتقانات الحشوية مطلقاً والتهبيين للزف أو نفث الدم وكذا الشيوخ الا من اعتاد ذلك منهم ولا يجوز للاطفال أيضاً

ثانياً — الغسل بالماء الدافئ : حرارة الماء فيه بين ٢٠ — ٣٠ تتقبض فيه العروق أولاً تقبضاً سريعاً ويتلوه اتساع في العروق يمدد الدم ويخفض الضغط وينقص من عدد كريات

الدم البيض والحمز ويخفف من قلوبته ويزيد نسبة الصفات الحامضية فيه فترتفع الحرارة ارتفاعاً لا يدرك إلا بأجهزة خاصة وتنقص خطربة Tonicite العضلات وتنشط المبادلات التنفسية وينشط الاغتناء وتخف الاضطرابات العصبية بهدوء الاعصاب يوصى الاغتسال بالماء الدافئ للشبان والكهول أصحاب الأمراض القلبية والعصبية والكلوية والمصابين بارتفاع الضغط الشرياني، وأصحاب الاحتقانات الحشوية والشيوخ والاطفال

ثالثاً — الغسل بالماء الحار : حرارة الماء بين (٣٠ — ٣٥) ينشط الدوران المحيطي بتوسيع العروق وخفض التوتر وهو مفيد كواسطة للنظافة لأنه يلين البشرة ويسهل زوال اقذارها

يوصى به لمن تدعو صنعته الى كثرة التلوث بالاقذار أو الى القادمين من سفر ويجب ألا تطول مدته بحيث لا تزيد عن عشرين دقيقة وألا يكرر أكثر من مرة في الاسبوع

ز — فوائد الوضوء العامة : الوضوء غسل موضعي يوصى باستعمال الماء البارد فيه ما لم تكن هنالك حالات مرضية تمنع ذلك كالتي بيّناها في فوائد الاغتسال العامة فيرجح حينئذ الماء الدافئ . ويفيد الوضوء (وهو غسل الاقسام المكشوفة كما بينا) بالماء البارد فائدة لا تقل عن الفائدة التي ذكرناها في بحث فوائد الاغتسال لا بل هو أشد فائدة صحية لتكرره وخفة الارتكاسات الناجمة عنه فيؤدي الوضوء بالماء البارد الى تقبض العروق الشعرية السطحية حتى ان الجلد قد يبيض من ذلك وقد تنقلص العضلات فيندفع الدم الى أرجاء الجسم العميقة ولا يلبث أن يظهر ارتكاس يعيد كل شيء الى حاله الطبيعية . تستفيد من ذلك الجملة الدورانية فائدة عظيمة فيرتفع الضغط الدموي أولاً وتزداد حركة القلب . ومتى وقف التقلص العضلي في المحيط أعقب تقبض العروق تمدها فيعود للجلد لونه وللضغط حالته الطبيعية السابقة ويزداد عدد الكريات الحمز وتنشط المبادلات في الجسم وتقوى الحركات التنفسية فيزداد مقدار الاوكسجين الوارد وتكثر كمية حامض الفحم الصادر ويؤثر غسل الاقسام المكشوفة المعرضة بالوضوء تأثيراً طاماً فيفرز البول ويكثر معه افراغ السموم وتزداد الشهية الى الطعام وينشط الهضم وتزداد أكثر المفرغات وتنبيه الجملة العصبية وينتج من الارتكاس البادئ بالجلد نشاطاً طاماً وذلك بتنبيه الاعصاب الجلدية والاعصاب الحركية وانتقال هذا التنبيه الى جملي الاعصاب الودية والرئوية المعدية ومنهما الى جميع الاعضاء والغدد

حديقة المقتطف

رايندرانات تاجور

الفصل الرابع

« الوطنية »



لحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدينة والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٤ —

لمحمد المنجوري

وللوطنية عند تاجور معنىً روحياً ساماً ، يلتسمه في غير ما يلتسمه القادة والزعماء من هياج وتدمير واحراق ، ولهذا أبى فيلسوفنا الكريم على الزعماء استهواء الجماهير في سبيل الوطن

« ان الذين يبذلون التضحيات في سبيل بلادهم يحق لهم أن يدعوا خدام الوطن ، واما من يكره الغير على التضحية لينال هو المجد فهو الخائن الاثم لوطنه ، لانه يكون قد اختلس حرية مواطنيه ليصعد الى القمة . . . ان الذي يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج انما يجب الهياج أكثر مما يجب وطنه ، ويكبر شهواته وأغراضاً أكبر مما يكبر دواعي الوطن الحقيقية . اننا اذا وضعنا شهواتنا في مكان أرفع من الحقيقة كان ذلك دليلاً ثابتاً على عبوديتنا »

ولقد سخر تاجور من زعماء الهند ومثّل بهم في روايته « البيت والعالم » على لسان « سانديب » حين قال :

« لقد خلقت للقيادة ، ولتطميني الجماهير ، فأقودها كما أقود الجواد من لجامه الى حيث أريد ، ليس التردد ، ولا تأنيب الضمير من خلقي ، ان قاعدتي في الحياة هي : اني اريد ، وان أنال ما أريد ، ان الظلم هو الذي أغنى الشعوب والافراد فاطلموا تفوزوا »

« ان الذين يعرفون ان ينالوا ما يرغبون فيه ، هم الذين خلقوا للزمامة » ان طريقتي في الحياة تضطرني الى الاعتقاد ان كل ما كان عظيماً فهو هائل ظالم ، وان العدالة توافق صغار الاحلام وحدهم ، أما العظماء فقد احتواهم الظلم والقوة وانكار الضمير »

« خلق الانسان كالارض ، محاط مثلها بضباب من أفكاره ، وان حقيقة لخبوء فيه — ان خير ما بي من خلق ونزعات قد ولد معي قبل أن أخط نظام حياتي . متى خلا قلب المرء من الظلم أصبح مقضياً عليه بالفشل وتأنيب الضمير »

« لقد امتنحت أتباعي فسألتم : من منكم يستطيع أن يقطع نخد هذه العزة دون أن يقتلها ويأثني بها . فلما أن سبقتهم الشفقة ، ذهبت بنفسي فقطعت فخذ العزة بخنجر . ولقد هتفوا لي بأني لا أعرف الضعف الانساني »

ويعارض تاجور زعماء الهند ويتهمهم في وطنيتهم فيقول :

« اني أعرف بلادي على حقيقتها ، ولذلك أرتاب في استخدام قوة الاستهواء في سبيل وطني وأما زعماءكم أيها الهندود ، فهم الذين يفررون بالشعب استهواء وتدليساً ، ويحسبون انهم يخاضون

لبلائهم اخلاصهم لخالقهم ، ويعبدون وطنهم كأن الله قد تمثل في هذا الوطن ، ثم يطلبون من الجماهير تقديس أشخاصهم كأن الوطن قد تمثل فيهم ، وكأن الله قد تمثل من وراء هذا الوطن في ذواتهم المقدسة
 « ليس من الوطنية أن توضع الغاية فوق النفس ولا أن تكون التضحية في سبيل البلاد دون حساب أو تقدير ، ان الزعماء يريدون أن يفرقوا بين الدين والوطن . ولكن الوطنية الصحيحة أن تكون النفس فوق الغايات ، وأن تكون التضحية في سبيل الوطن تضحية شريفة سامية متصلة بالانسانية لا يهرق فيها دم أو يقتل فيها ضحية أو يغلب عليها الضعف أو يفرق فيها بين الدين والعاطفة والوطن
 ان الانسانية هي الوطنية في أسمى معانيها »

فتاجور ينظر الى الوطنية نظرة تصوّف وتفكير وسموّ ، ولا أستطيع أن اتهمه كما اتهمه خصومه في وطنه بالتردد وانحراف الرأي عن فكرة الوطن المستقيمة . فلقد هاجت أقواله خصومه في السياسة واتهموه بما لا ينبغي أن يذكر من ضعف واستسلام لخصوم بلاده . ولقد عارض في روايته « البيت والعالم » الآراء السائدة في الوطنية وأعلن رأيه في الوقت الذي ثارت فيه حركة الوطن الهندي ، وبقي هو معزول عن هذه الحركة لا يؤيدها وان كان يؤمن بالحق الوطني الذي أثار فكرة الهنود ودفعهم الى النداء ، ولكنه مع ذلك لا يقر وسائل العنف فيقول على لسان « نيكهل » في روايته

« كل فوز يأتي من طريق الضغط فهو فوز طار يزول بزوال هذا الضغط »

ويعارض الرأي العام الذي يمثله قول الزعيم سانديب

« ان من يريد أن يمتلك يجب عليه ان ينتزع ويغتصب ، وان يكون الفوز إلا على يد زعيم يقود البلاد بانتزاع الخير غاضباً لوطنه غضبة الأبطال مقاتلاً في سبيله منتقماً له دماً بدم : يجب أن يدعى الوطن اله مقدساً تصبغ في سبيله الأرض بدماء الضحايا »

ولكن تاجور يقول!

« اني أريد أن أخدم بلادي من غير هذا الباب ، اني لا أريد الدم والنار والخطب بل أريد الوطن الحي والشجر الناضر المزدهر . . . » « اني لا أريد أن استعبد الناس وان كانوا قد اعتادوا الاستعباد حتى صار خلقاً فيهم . اني أريد أن أقاوم هذه المظالم وهذا الاستعباد الذي يقام باسم الوطنية »

وليست فكرة تاجور في الوطنية فكرة أوحتها لخصومة مع الزعماء ، فهو يأبى لخصومة وينكر العداوة ، ولكنها فكرة نشأت من طبيعة فلسفته الانسانية ، لانه يعتقد ان الانسانية خير من الوطنية ، وان الوطنيات مثار الانانية ، ومجلبة الاحقاد والحروب . فالمثل العليا هي التي أملت على تاجور هذا النظر المتسامي فهو يقول

« ليس من الوطنية أن نعامل أوطاننا معاملة أمهاتنا وآبائنا ، فنحبها حباً نحميه ونذود عنه بالعنف والدم ، لان هذه وسائل تورث البغضاء بين الامم والشعوب . فلن ينزع الخير من الشر ، ولن يؤتي الغضب أو الانقام سعادة للاوطان . وانما تتحقق سعادة الاوطان بمعرفة الحقائق وتقديرها . وانى لا أكون وطنياً إلا اذا عرفت بلادي على حقيقتها وكرهت استهواء الجماهير والتغريب بالناس . وليس من الوطنية أن يتحمس

الانسان لبلاده إلا من حيث هي حقيقة كائنة مرتبطة بالعالم

فتاجور عند ما يعالج شؤون وطنه يعالجها علاج طبيب مريض يقدر الحقائق ويزن الأدواء بميزان دقيق حساس ، فهو حكيم يرقب عواقب الأمور ، لا يندفع وراء الهوس والاعصاب ، وهو يقرر الأمور حلوة أو مريرة ، لا يمالئ ولا يغرر مرضاة لشهواته أو استهواء لآماله

« ان قوانا الحيوية وهي الآن في طور الاحتضار تحتاج الى مباحث تجدد من نشاطها وتقضي أعصابها . فإذ لنا تناقض الحقائق ونحفل بالترهات . تأخذنا الكليات المنمقة ويسجرنا بلبغ الخطب فلمست تقاس جدارة الامة في حكم نفسها ببلاغة زعمائها وهياج طوائفها ، ولكن تقاس جدارة الامم في خلقها وضبط أعصابها وسيادتها على أهوائها وشهواتها »

فالعنصر و الدم والوطن هي مقومات القومية والوطنية التي لا يدعو اليها الفيلسوف تاجور وإنما يدعو تاجور الى الوحدة العالمية تلبية لأشرف الغايات التي تدعو اليها فلسفته في الحياة ، وهي الوحدة الروحية ، فهو انساني فهم الجماعة والحياة ونسي نفسه وأنكر أنانيته وحلق فوق الاثرة والمطامع البشرية المملوءة بالشهوات والاغراض ، وهو يحس وطنه قطعة من العالم غير منفصلة ، وهو في تفكيره ومشاعره يحقق دائماً سمو المعاني الجامعة التي تأتلف وطبيعة الاشياء وتمتزج بكيان البشرية كخلية واحدة ، فالقوميات والالوان والعناصر ، كل هذه عوازل هدم في الكيان البشري العام ، ولهذا كانت وطنية تاجور وطنية جامعة تدعو الى الاتصال بالعالم من طريق المحبة وحقوق الانسان وادراك الحقائق ادراكاً صحيحاً

فالوطن في نظر تاجور كلمة معنوية لا تدل على مدلول محدود بمحدود الأوضاع والجغرافية^(١) . والوطن وان كان له تاريخ متصل العروق بالوراثة والدم ، عزيز الذكرى وان جارت الاحداث عليه ، إلا ان تاجور يمتلك أعصابه فيقرر أن فكرة الوطنية فكرة بدائية تدعو الى الانانية والاثرة ، وتحدد أوضاع التفكير البشري ، وتحصّر مشاعر الانسان ومطالبه ، وتقهر تطلعه وسموه الى المثل العليا في الحياة ، وتخلق من الانسان خصماً عنيداً لأخيه الانسان ، بل انها تخلق منه عدواً للطبيعة ذاتها اذ يسجد ففكره لإذلالها واخضاعها ليسيطر على العلوم سيطرة جبارة ليحارب ويغزو ويستعمر ويدق أعناق البشر ولكن مهم الانسان في الحياة يجب ان يكون أسمى ادراكاً لمعاني الحياة من هذه الأوضاع الضيقة المحدودة ، فنشأة الحرية وطبيعة الانسانية لتدعو الانسان منذ خلق الى ان يكون أوفق حياته واسع المدى غير محدود ، وان تكون حضارته ومدنيته مدنية مشتركة بعيدة

عن الشعور بالفردية الضيقة فكما انه لا يستطيع ان يخلق عناصر وجوده من ذاته ونفسه ولا يمكنه ان يعيش على ما في جسده من مدّخر ، ولا بدّ له من مدد موصول بما حوله ، كذلك لا يمكن لوطن ان يعكف على نفسه فيعيش غير متصل بالعالم ، فهو مفتقر الى عناصر قد حرمتها الحياة ايها وجات بها على غيره . ففكرة الوطن فكرة مبتورة عن أوصال الوجود والكيان الحيوي الدائم . وانما فكرة التعاون هي فكرة المدنية المشتركة لتوليد ثقافة عالمية ليس لجنس أودم أو عصبية أي فضل فيها ، فالخضارة لا تعرف الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا اللون ، بل هي رسالة الفكر البشري التي ينبغي ان تعم الدنيا وتشمل الوطن الكبير والتمادي في الوطنية جرم انساني يببّد الأمم ويغني الشعوب ، اذ يحتم وضع الحرب ضماناً للسلام الاجتماعي وضرورة لبقاء الحياة ، ولئن كان هذا جائزاً يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل الأمم والقبايل ، وتجعل كلاً يعزّز بكيانه وجنسه ، فليس بعد اليوم من سبيل الى اجازة هذه الامراض الاجتماعية بعدما أصبحت الحدود الطبيعية شيئاً لاغياً ، وبعد ان تقدمت المواصلات ، ومحيت المسافات وسادت قوة الكهرباء واللاسلكي واخترقت الطائرة الفضاء . وبعد ان تمّ التمازج العقلي بين الأمم ، وأحست كل أمة في ويلات الأمة الأخرى ويلات لها تؤثر في حياتها وكيانها كما يؤثر العضو المريض في بقية الجسد وتاريخ الانسانية يجب ألا يكون تاريخ الحروب والشور ، وانما يجب ان يكون تاريخ الحضارة والعقل والسلم ، ويجب ألا تنفرد به أمة ، فما كانت المدنية لأمة أو لجيل او لجنس او للون أو لوطن واحد

« وانما تاريخ الانسانية يجب ان تكتبه جميع الشعوب ، وأن يتوحد جهودهم فيه ، ولهذا لا يمكن التسليم بأن يبيع المرء ضميره في سبيل السياسة والغدر ، وأن يجعل وطنه معبوداً . ان الرجال الذين يموتون في سبيل الحقيقة يصبحون خالدين ، وكذلك اذا مات شعب بأ كمله في هذا السبيل أصبح خالداً في تاريخ الانسان (١) »

فتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، ودعوته الى العالمية ليست دعوة زهد وتقشف ، فهو يرى في الزهد والتقشف اعلافاً بعداوة الانسان للحياة وعدم ادراك حقائقها ولهذا اراد ان يجوب العالم ، فغابه غير مرة ، وجعل منه بيتاً متصل الارحاء ، وطاف بممالك الأرض ، وقابل الملوك والقواد ، وأعلن لهم آراءه على انها صورة صادقة من تفكير الشرق واحساسه ، ثم عاد الى بلاده وفي نفسه حسرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية والغدر واهدار كرامة الروح ، مدنية الجشع

والجوع ، مدينة الذهب والفقر ، هذه هي المدينة القائمة على العصبية والقوميات انها المدينة التي لا تزال ترقص فوق البراكين !

ولقد ا نذر تاجور قادة الغرب يوم حاضرم (١)

« ان مدينتكم يجب ان تسودها روح المحبة العامة ، وأن نزول منها الاثرة والانانية ، والتعصب للوطن والجنس واللون ، وإلا فسندفع شبابكم وراء آراء وعقائد مهلكة مدمرة وستتوالى عليكم النذر والحروب والدمار . » ان مهم هذا الجيل يجب ان يكون في محو الاثرة من النفوس وعلى الناس ان يتجاهد في سبيل تغليب الخير في مطالب الحياة وغرائزها وان تتمحي فوارق الوطن والجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية الجامعة »

تاجور في مصر

ومن الوفاء لتاجور أن أسجل الذكريات التي تركتها زيارته لمصر ، فلقد وصل الى القاهرة ظهر يوم الاثنين ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٦ بعد ان مكث بالاسكندرية يومين . وكان المغفور له احمد شوقي بك قد كرمه في حفل جامع دعا اليه المغفور له سعد زغلول باشا وجماعة من اعضاء البرلمان والوزراء ، ولقد لبي الجميع الدعوة احتفاءً بالشاعر الكبير وترتب على حضورهم تأجيل انعقاد جلسة مجلس النواب ، وتألقت لجنة برئاسة وزير المعارف العمومية سعادة علي باشا الشمسي لتكريمه في حفل بفندق شبرد ضم الزعماء ورجال العلم والأدب والتعليم من مصريين وأجانب ، واقامت له حفلة بمسرح حديقة الأزبكية في مساء ذلك اليوم ، وقدمه سعادة لطفي باشا السيد مدير الجامعة للحاضرين وتكلم فيها تاجور كلمات جامعة في الشعر والفلسفة والحياة (٢) وتشرف تاجور بمقابلة جلالة المغفور له الملك فؤاد ، وقد أثرت هذه الزيارة في نفس تاجور حتى انه أشار اليها بقوله

« لقد لقيت في مصر ملكاً عظيماً ذا شخصية محبة للعلم والعلماء »

ولقد أكرم جلالة الملك وفادة الشاعر فأهدى اليه مؤلفاته بعد توقيعها بالامضاء الملكي الكريم فعد تاجور هذا تكريماً لنا ليفه واكباراً لدعوته ، وطلب يومئذٍ من جلالته ان تكون هدية مصر الى الهند التآليف والكتب المصرية التي أنتجتها الثقافة الحديثة في مصر تعريزاً للصلات الروحية بين البلدين

ولقد كان شعور المصريين لقاء زيارة تاجور لبلادهم شعور عطف ومحبة واحترام ، واشتركت في تقديره العاطفة الشرقية التي يشعر بها كل شرقي مثقف ، ولقد رحبت به الصحافة

(١) محاضرات تاجور في اميركا

(٢) راجع خطاب تاجور النذل الثاني و ص ١٧٧ ع ٢ م ١٠٠ المتخلف المنجوري

المصرية واستقبلته مبعوثاً للوحدة الشرقية التي تنشد لها شعوب الشرق وتعمل لها من النواحي الاجتماعية والسياسية ، ورأت في تاجور رسولا كريماً جاء لبعث الصلات المعنوية التي تربط أمم الشرق بعضها ببعض ، ولأن كانت عظمة هذا الحكيم دافعة كل الشعوب الى احترامه والاقرار بفضلها ، فليس شك في ان شقيقته كانت ذات أثر عظيم في شعور العطف والمحبة اللذين خفقت بهما أفئدة المصريين فان هذا الفارق الذي أقامته الامم الاوروبية بين الشرق والغرب وهذه الصلات التي توطدها فيما بينها وهذه الجبهة المتحدة التي ما يفتأ ساستها ينادون بضرورتها للوقوف في وجه الشرق ومطالبه وإنشاء نكاة يستندون اليها لتسويغ وجهة النظر الاستعمارية — جميع هذه الاسباب جعلت من الشرق وحدة تسعى الى نوع من الاتصال ولأن كان هذا الاتصال السياسي غير محقق من الناحية الدولية لاسباب شتى الا أن الشرق سيطالب به كحق طبيعي كلما سادت الديمقراطية نظم الحكم ، وعندما تتحقق فكرة المدنية الشرقية في وجوب المساواة بين الشعوب جميعاً — على ان الاتصال المعنوي ممكن وأدواته ميسرة ، فان الروح الدينية التي ظهرت اول ما ظهرت في الشرق متشابهة بين الاديان المختلفة . وكلها ترمي الى مدى واحد وغاية واحدة ، وتصور الحياة وما بعد الحياة متشابهة في غير الناحية الدينية ، وفكرة الشرق وجلال المعاني الروحية التي توحى باعتبارها مهبط العقائد والاديان ومشوى الانبياء والرسل والحكماء ، كل هذا يشترك في ربط قلوب الشرقيين ربطاً معنوياً يشعرنا بتقارب الاحساس والعطف والتفكير ، بل كل هذا يؤكد تحقيق توارد العقائد والمشاعر المتصلة بالعبادات في الشرق

وتاجور يدعو الى هذه الدعوة ولكنه يلتبسها من الضمير الشرقي المستكن في وجدان جميع الشعوب الشرقية ، فهو يجاهد لبعث الروح المعنوية في الشرق ولتقوية الحياة السامية التي تدعو اليها العقائد ، على انها مصدر الاتحاد والالفة والخير ، وعلى انها مبعث التفكير والايمان بسمو الروح وتغليب الضمير الانساني على جميع مرافق الحياة العملية

ولقيت تاجور في غرفته بفندق شبرد عند زيارته مصر سنة ١٩٢٦ ، بعد ان طاف بممالك أوروبا وسألته عما استوقف نظره في أوروبا فقال

« إنني أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذخري ثقافي لا يعوض . ان أوروبا تعاني تيارين قويين ومختلفين تيار الشيوعية وتيار الفاشستية وكلاهما تيار عنيف جارف وانا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي هذه الزيارة بالغ التأثير ، دخلت عليه وهو في ركن من الغرفة ، يشع فيها نور بنفسجي هادئ ، وتاجور جالس في كرسي مريح في ثوب داكن فضفاض ، حاري الرأس إلا من شعر فضي منسدل يكاد يصل الى كتفيه ، ولحيته طويلة بيضاء أكسبته جمالاً

وجلالاً ، وقد انبعثت من عيني الشاعر الكبيرتين نظرات تثقب الغيب وترقب الالهام ، نظرات هادئة أفاضت على المكان قدسية وشعراً ورهبة أشعرتني بأنني أمام قدس روحي ، يبشر بما يدعو اليه الشرق الجليل من تعاليم ووحدة روحية واتصال دائم بحقيقة الحياة ، فوقفت صامتاً حتى دعاني الى الجلوس ، جلست بعد أن لمست أنامل نديةً ، كنت أمني النفس بلثمها طويلاً ، وتجلت في النفس فكرة الروحية تنبعث من كيانه المادي ، ولكن تاجور أفاض عليّ بما أخرجني من شرود تفكيري ، فسمعت صوتاً حلواً يفيض عذوبة وحناناً :

« أنت مستر . . . قلت نعم . . . قال أي سنك من يقرأ الادب الهندي في مصر . قلت اني أقرأ شعرك ومقبل عليه منذ سنين ، منذ تفتحت امامي مباحج الحياة ، وكتبت في أدبك في مجلة الهلال سنة ١٩٢٣ . فقال وماذا قرأت لي : قلت شيترا والبستاني وقطف النمار وجيتا نشالي فقال : وهل قرأت « سهدانا » قلت نعم يا مولاي قرأته وترجعت أكثره الى العربية ، هذا كتابك وفلسفتك ولحمة من رسالتك وهنا رفع تاجور بصره إلي ، فاذا عيناان واسعتان يشع منهما هدوء روحي وجمال قدسي لم أقو على احتمال النظر اليهما إذ أفاضا على وجهه الجليل هالة من نور ، فلمحت في صدره عقداً من الزهر الأبيض مدلى كأنه اللؤلؤ المنظوم . ثم سمعته يقول في نبرات موسيقية هادئة كن يتحدث الى نفسه : اني مسرور برؤيتك ويلوح لي انك في مستقبل الشباب ، ومهم بما يشغل أدبي وفلسفي من آراء ، فان كنت حقاً ظاهرة لشباب هذا الجيل في الشرق وفي بلدكم ، ملتي الثقافتين ، فاني مطمئن الى تغليب روح الشرق وفلسفته في ضميركم معشر الشباب . . . وأما شباب الغرب فيهلوني أن أراه مندفعاً بأعصاب ثائرة الى منزع الانانية والالية ، اني مشفق على المدنية الاوروبية أن تنهار »

والتقى بتاجور غير واحد من المفكرين والادباء وقادة الرأي ، ولقد لقيه فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا مع رفيقه الدكتور طه حسين بك ، ولقد تحدثنا اليه حديثاً اجتماعياً ، ووصفاً تاجور وصفاً رائعاً بديعاً فقالا : « لتاجور سمت النفس الهادئة ويزيده الهرم هدوءاً فهو يتحرك في رفق اذا تحرك ، وينظر في رفق اذا نظر ، ويتحدث حين يتحدث في رفق أيضاً ، وقد أثرت الشيخوخة في ذلك الهيكل الانساني كله ، فبدلته من جمال الشباب جمال الهرم وجلاله ، غير عيين بقي لها كل ما في الشباب اليافع من قوة وجمال ، في عذوبة ورحمة ، ها أسمى من ان يكونا من أثر الشباب أو من أثر الهرم عيناان سوداوان في صفاء ونور ، لم يخلقهما ترديد النظر في هذا العالم المادي الذي تخطف فنتته صفاء العيون ونورها ، كثيراً ما يطبقهما متحدتاً ومستمعاً ، حتى اذا رفع الى شيء بصره لم يرسله طويلاً ولا ممعناً وانما هي لحمة كوميض الالهام

ليس الذي يملأ نفسك في حضرة تاجور هو شعور الهيبة للعظمة الانسانية ، ولا شعور الخضوع لسلطان الفكر الفلسفي العميق ، ولا هو الاعجاب بموهبة شعرية بارعة هتفت بأنغامها السماوية ورددت أناشيدها الآفاق ، انما الذي يملأ نفسك في حضرة تاجور هي تجلي فكرته الروحية في كل شيء من كيانه المادي ، كأنك تشهد روحاً صافية تسمو على ما في عالم المادة من لذة وألم ، من غير استهانة بما فيه من جمال وكال ، ومن غير تحقير لشيء من قوى هذا الوجود التي يريد الشاعر الفيلسوف أن تنصرف الى الحب والسلام والرفق ليس تاجور عابساً ولا بساماً ، فقد يكون في الابتسام شيء من السخرية ، ولا يسخر تاجور من شيء ،

وقد يكون العبوس من حرج في الصدر وتشاؤم ، وتاجور لا يضيق صدره بشيء في هذه الدنيا ، فإن له من وراء كل ضيق سعة في العالم الروحي ، عالم الحقيقة والطمأنينة والرضاء ، ذلك العالم الذي يريد تاجور أن يأخذ بناصيته القلوب الانسانية إليه .

وأما حديث الشيخين الكبيرين مع تاجور ، فقد كان حديثاً عذباً جامعاً : قال أحدهما وهو يحدثه :

« ان مما يؤسف له ان زيارة الشاعر الحكيم لمصر قصيرة لا تسمح له بأن يزور جامعتها المصرية الناشئة وجامعتها الازهرية العتيقة ويتحدث الى رجال هاتين الجامعتين . قال تاجور : « كم كنت احب ذلك وارغب فيه ، بعد ما لاحظته من ان في مصر ثقافة عالية جعلت شعبها الاسلامي بمعدل مما يظهر عند الشعوب الاسلامية الهندية من الاسراف في الاستمساك بالقديم والاستعصاء على حركة التجديد ، وما يستتبع ذلك من الآثار ، على ان من النافع جداً ان تقوى الصلات بين مصر وبين الهند . فقد يكون في ذلك ما يعين على حل بعض المشكلات القائمة بين مسلمي الهند وغيرهم من الهندوس والواقع ان هذه المشكلات ثقيلة منغصة لحياة اهل الهند جميعاً ، ولقد رأيت ملك مصر اليوم ، وطابت اليه ان يفضل فيمنح جامعتنا هدية اعتقد ان سيكون لها في حل هذه المشكلة أثر عظيم . وهذه الهدية هي ما نشر في مصر وفي أوروبا من الكتب العربية في الادب والتاريخ وما اليهما ، فلو ان الهندوس استطاعوا ان ينظروا في هذه الكتب العربية ويفهموا منها الروح العربي الاسلامي فهمأ حسناً ، لأنهم ذلك من غير شك على فهم عقلية اخوانهم من مسلمي الهند . وقد تفضل جلالة الملك فأظهر تقديره لهذه الفكرة ووعد بأن يمنحنا هذه الهدية »

وسأل احد الشيخين تاجور : « وما رأيك في الاسباب التي جعلت مسلمي الهند حراًصاً على القديم مستعصين على حركة التجديد أمي أسباب اجتماعية أم دينية أم هي غير هذه وتلك ؟ قال تاجور : هي فيما أظن اسباب متصلة بالتربية التي يتلقاها مسلمو الهند والتي تخضع خضوعاً شديداً جداً لتأثير شيوخهم من رجال الدين « ملا » فقد وصل هؤلاء الشيوخ مع مرور الزمن وما لهم على النفوس من سلطان الى اقناع الهندي المسلم بأنه يستطيع ان يجد في نفسه وفي كتبه وتقاليده كل ما يحتاج اليه دون ان يضطر الى غيره في امر من الأمور ، واذا اقتنع الانسان هذا الاقتناع فليس من اليسير ان يعترف لغيره بفضل أو ان يشعر بالحاجة الى غيره ، على ان مسلمي الهند قد بدأوا يتطورون من هذه الناحية تطوراً مهماً يكن بطيئاً شاقاً فهو واقع ولا بد من انه سيؤدي الى نتائج الطبيعة »

وسأل احد الشيخين الكريمين « ألم تفكر في توحيد ما بين المسلمين وغيرهم من اهل الهند من الناحية الدينية ، بأن يتحد مذهب اولئك وهؤلاء في الدين مثلاً فأجاب الشاعر الحكيم في قوة وشدة : كلا ! وما فكرت في ذلك وما ينبغي ان يفكر فيه أحد فذلك في ذاته غير ميسور ، وهو ان تحقق يضر أكثر مما ينفع ولا يعود على الانسانية الا بالخسارة الشديدة » . ثم خاطب الضيفين بقوله : « أنتم تعلمان ان الدين انما هو لون من ألوان التعبير الانساني عن العواطف والميول والمثل العليا ، وان هذا اللون من ألوان التعبير يتصل أشد الاتصال بأمزجة الافراد والامم ، يمثل لها تمثيلاً صادفاً قوياً ، فن الثروة

للانسانية ان تحتفظ بهذه الالوان المختلفة التي عبرت بها الامم والشعوب عن عواطفها وميولها وطموحها الى الحق الذي لاحد له . ومن يحاول محو دين من هذه الاديان انما يبدد بنوع ما شيئاً من هذه الثروة القيمة التي يجب ان تحرس عليها الانسانية . انك لا تستطيع أن تستغني بدين عن دين لان كل دين كما قلت مظهر قوي لمزاج الامة التي تدين به ، وهو طريق من الطرق التي تسلكها الانسانية الى الجهاد والحق والمثل الاعلا . فكر في المسيحية تجددها ديانة انسانية بمعنى انها تلمس الحقيقة المطلقة من الطريق الانسانية الصرفة وفكر في ديننا نحن أهل الهند تجدده ديناً كونياً ، بمعنى انه يلمس الحقيقة المطلقة من طريق الكون السماوي وما فيه من العجائب والآيات ، يجب ان تحتفظ كل امة بدينها بل يجب فوق ذلك ان تحتفظ الانسانية بدياناتها جميعاً »

ولكن أحد الشيخين استدرج فقال : « ولكنك أيها الحكيم ترى من غير شك ان الانسانية في حاجة الى ان يتحد مثلها الاعلى ، واذا لم تستطع الديانات ان تمثل هذا المثل الاعلى ، المشترك فما السبيل اليها » فقال تاجور : « ان المثل الاعلى للانسانية يجب ان يكون واحداً ، ويجب ان يكون مشتركاً ، وهو هذه الحقيقة المطلقة التي لا حد لها ولا سبيل الى استيعابها ، ولن يؤثر اختلاف الديانات في هذا المثل الاعلى من حيث هو واحد مشترك تتعاون الانسانية كلها على طلبه والسعي اليه ذلك ان هذا المثل سيظل واحداً وان اختلفت الطرق اليه ، وما الديانات المختلفة الا طرق متباينة ، ولكنها متحدة الغاية تنتهي كلها الى هذا المثل الاعلى الواحد المشترك ، ولقد رأيت ان الحقيقة المطلقة التي هي مثلنا الاعلى لا حد لها ولا سبيل الى استيعابها ، واذا فالمسيحية تنتهي بأهلها الى ناحية من انحاء هذه الحقيقة وديانتنا الهندية تنتهي الى نفس هذه الحقيقة ، وهكذا باقي الديانات . وما دامت الديانات كلها سبيلاً الى هذه الحقيقة المطلقة وما دامت في الوقت نفسه متصلة أشد الاتصال بامزجة الافراد والجماعات وتمثلها أقوى تمثيل وأصدق ، فلا خير مطلقاً في محاولة محو بعضها أو إضعافه أو تقوية بعضها دون بعض وانما الخير كل الخير ان تترك للافراد والامم الحرية الدينية التي تمكنها من ان تعلن شعورها وعواطفها وطموحها الى المثل الاعلى كما تريد وكما تستطيع . ذلك يغني الانسانية ويضاعف من ثروتها المعنوية » (١) . هذه هي رسالة الشرق الكريم أداها شاعره وفيلسوفه أحسن الأداء

ربّ إله البشر جميعاً

تنزهت عن كل لون وجنس

يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها

وجد بين قلوبنا ، والهمنا تبادل المحبة

وأيدها بروح الحق والعدل

بَابُ الْمُرَاسَلَةِ وَالْمُنَاطَاةِ

استدراكات

على «الامتناع والمؤانسة»

للككتور بشر فارس

هذا الجزء الثاني من كتاب «الامتناع والمؤانسة» للمعشئ الغزير أدبه المحبّر حديثه :
أبي حيان التوحيدي من أئمة المائة الرابعة ، يخرجه للناس ، بعد الجزء الأول ، الأستاذان
أحمد أمين وأحمد الزين^(١) . وأنه لسعي حسن ، فهذا الكتاب مجمع لتفاريق الفنون : فيه من
لطائف الصناعتين ، وفيه فقه لغة وفلسفة وموسيقى ، وفيه تاريخ واجتماع ، ثم صنوف من
الملح والنوادر . وليس الكتاب بجمع ولا التقاط ، ولكن المسائل تحت قلم التوحيدي تنتشر
كأنها من محض ابتكاره ، والأغراض تتشعب كأنها ولائذ الساعة ، وذلك بأن لأبي حيان
فهماً متقدماً وقوة امتصاص ذهني نادرة الى جنب أداء حلو ورصف ينفرد عن مواقف الأشباه
وهذا الجزء — عندي — أعلى من الأول مرتبةً ، من جهة القوائد التي يضمها ، من
ذلك ما أثبت في شأن «أخوان الصفا» ، وما عولج من مطالب فلسفية ، وما سرد من أخبار
المغنين والقينات وأهل الطرب ، وما روي في الموازنة بين الشعر والنثر مع ما اندرج تحتها
من الكلام على أنواع البلاغة

ولما خرج الجزء الأول نظرت فيه فنبهت الى أشياء بينت وجه الوهم فيها^(٢) . ووقفتني
اليوم ألفاظ وعبارات في هذا الجزء أحب أن أعرضها هنا . ولا يشغلني أن يثبتها الناشران
الفاضلان في آخر الجزء الثالث يوم يبرز ان شاء الله ، فانما هي الفحص لوجهه وما يعقبه من
لفت رغبة في اتمام الفائدة

(١) لجنة النشر والتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٤٢

(٢) مجلة الرسالة ١٨ / ١٢ / ١٩٣٩ ، العدد ٣٣٧ — وكذلك صنع الزميل الكريم الدكتور زكي
مبارك (الرسالة أيضا العدد ٣٣٦) والاب الاستاذ الجليل انستاس ماري الكرملي («المقتطف» المجلد

إلا أنه من الغريب أن يأخذ مخرج نص من النصوص عزة نائرة كأنما الناقد عليه أن يكبر دون أن ينبه ، وكأنما مخرج نص من النصوص فوق الهفوة والعترة . وذلك أنه لما استدرك الصديق الدكتور زكي مبارك على الجزء الاول من « الامناع والموانسة » واستدركت أنا وثب الينا من وثب وقد أخفى اسمه ، في مجلة « الرسالة » . غير أنه ما عثم أن عثر بسنان قلمه إذ بينت ما في كلامه من التلبيس والغنت (الرسالة ٣٤١ - ٣٤٣)

وخير من هذا أن ينصرف مخرج النص أيّا كان الى التدقيق ويلزم التحصيل . فهناك سقطات لا ملتمس لعذر فيها ، فأنما هي وليدة التسرع والاهمال أو نتيجة الاجتزاء بالحل القريب غير المبرم . ولا أرى بدءاً من التنبيه الى مثل هذا النقص ، لأن تحرير النصوص القديمة يتطلب موفور الهمة وقصي الدقة . وفي علمائنا ، والله الحمد ، من يأبى أن يترخص في هذين الشرطين وما يتصل بهما وبأخذ بهما ، مثل شيخى احمد زكي رحمه الله والأب الكرملي ونفر من رجال دار الكتب المصرية وجلة الدائنين في النشر بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت ، كل أولئك الى جنب المستشرقين . فمن السوء أن يتهاون بالأمر من تلزمه مكانته العلمية ألا يجعل للفاحص مجالاً لشبهة ولا للاخذ وجهاً لعب . وفي نقدي لكتاب « العقد الفريد » (المقتطف ، يناير ١٩٤١) تبين لمثل ذاك التهاون . وأسوأ من هذا أن يخشى محرر النص تنقيب أهل النظر وأن تثور به عزة الخطيء العارف ، مع أن النص القديم اذا نشر فأنما تتمه مراجعات المراجعين حتى ان العلماء في اوردية اذا ذكروا مثل ذاك النص أثبتوا المراجعات بجنبه ثم اني أزيد ان العلامة الأب الكرملي تدبر هذا الجزء الثاني (« الرسالة » ٤٧١ - ٤٧٥ و ٤٨٣ - ٤٨٧) ، فأحصى عدداً غير قليل من الأوهام والفرطات . فلم يسلم

والآن اليك أمثلة من المأخذ على حسب المنهج الذي عليه يجري العلماء في تحرير المخطوطات . وكذلك كان تقسيمى لما أخذ الجزء الاول

١ - التباعد عن سياق النص

ص ٣٣ س ٧ : « هذا باب إن توزع القول فيه طال ، وإن رُمي بالقصد جاز » - والوجه : « وإن رمي بالقصد جاز » . وبيان هذا ان التوحيدى اراد أن يقول : « ان هذا الباب ان توزع القول فيه تشعب وطال ، وإن رُمي بالقصد اي بالاعتدال ، فلا اطناب ولا استطراد ، جار : أي جانب الابانة والاحاطة . هذا وافطن للتورية التي قصدها أبو حيان ،

وايضاحها أن كلمة « جار » تفيد « الميل عن القصد » ، والقصد هنا : المستقيم ، وهو أيضاً :
نقيض الافراط والايغال

ص ٤٨ س ١ تحت — ص ٤٩ س ١ — ٢ : « اطلب في حياتك هذه العلم والمال تملك
بهما الناس لانك بين الخاصة والعامة ، فالخاصة تعظمك لفضلك ، والعامة تعظمك لمالك » —
والوجه : « فالخاصة تعظمك لعلك » . كذا يحسن التقسيم ويتم رد العجز على الصدر . هذا
تحرير ما جاء في النسخة (١) المخطوطة . واما الذي في النسخة (ب) المخطوطة ايضاً فرواية
صحيحة مقبولة على جهة ما بينت ، وحروفها كما في الهامش : « فالخاصة تفضلك بما تعلم ،
والعامة تعظمك بما تملك » ، هنا الملك (أي المال) وهناك العلم

ص ٧٦ س ١٢ : « ولكن لما غلبت عليهم العزة ودخلت النعمة في آناهم ، وظهرت
الخنزوانة (أي الكبر) بينهم » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين : « الحرية »
بدل « العزة » — فالوجه : « الحمية » ، اذ هي الى صورة الاصل أقرب ، وبالنسبة
والخنزوانة أردف

ص ٧٩ س ١٠ — ١٤ : وهو « كثير التأله شديد التوقي ، وما رأينا وزيراً على هذا
الدأب وبهذه العادة ، لا منافقاً ولا مخلصاً . وقد قال الله تعالى (إنا لا نضيع أجر من
أحسن عملاً) . وفي الهامش ان في (١) « ولا فحاصاً » بدلاً من « ولا مخلصاً » — والوجه ان
فحاصاً هو الصواب ، وبه يستقيم المعنى وتتجاوب أغراض العبارة . وهل الاخلاص
من الاعمال السيئة حتى ينفيه التوحيد عن الوزير ؟ وأما « الفحاص » فمدلوله في اللغة :
المبالغ في الفحص عن عيوب الناس وأسرارهم ، و « الفاحص » (كالفحيص) من « فاحصه
فلان كان كل واحد منهما يفحص عن عيب صاحبه وسره » (لسان العرب ، وتاج العروس ،
مادة ف ح ص)

ص ١٣١ س ١١ — ١٢ : « وهذه آفة معترضة في أمور الدين والدنيا ، ولا مطمع
في زوالها ، لأنها ناشئة من الطبائع المختلفة والعادات السيئة » — والوجه : « المتخلفة » ،
بدل « المختلفة » حتى يستقيم الكلام على عمود واحد . والتخلف : التأخر ، وفيه معنى القصور
والرداءة (ومن هنا يوافق « سوء العادات ») . ومن ذلك قولهم : « شاعر متخلف الطبع »

٢ — التجاني عن أسلوب المؤلف

ص ٨٥ س ٢ : « كذلك ايضاً القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على استثبات المركبات الا من
جهة القوة الحساسة . . . » — والوجه : « على إثبات المركبات » . والاثبات في المصطلح

نقيض المحو والنفي، واما الاستثبات فله معنى لغوي لا يناسب المقام، ويؤيد إثبات ركلة «الاثبات» ما سطره التوحيد بعد اسطر (ص ٨٥ س ١ تحت : «ما هو أكثر تركيباً فالحس أقدر على اثباته») ويجري العبارتين في جهة واحدة

ص ١٦٨ س ١-٣ : «ولا طَرَبَ الجراحي مع قضائه في الكرخ (اي مع أنه كان قاضياً في الكرخ) ... فإنه يغمز بالحاجب إذا رأى شَرطاً، وأمل أن يقبل خدّاً وفَرطاً على غناء شعلة (اسم قينة) ». وفي الهامش ان في كلتا النسختين «شرطاً» لا «مرطاً» و «فرطاً» لا «قرطاً»، فالمرط والقرط من تصحيح الناشرين — والوجه ان تقرأ العبارة على هذه الصورة، بعد استبدال «يأمل» من «أمل» مزوجة للفعل السابق : يغمز، وبعد استبدال «خدّاً» من «خدّاً» طباقاً لكلمة «فرطاً». وذلك أن «أمل» و «خدّاً» من مسخ الناسخ. ودونك العبارة اذن : «فانه يغمز بالحاجب إذا رأى شَرطاً (بفتح الراء، أي علامة من جهة الست شعلة)، ويأمل أن يقبل خدّاً (أي في القدر المحدود) وفَرطاً (بضم الأولين، والأمر الفَرط : المجاوز فيه الحد) هذا، واذكر هنا ان الحديث يجري في شأن الجراحي وهو قاضٍ، ثم تأمل التورية التي أرادها التوحيدي : (الشَرط، الحد، الفَرط) وهو من أرباب البلاغة

٣ — التسرع في تصويب الاصل

ص ٨٤ س ١٤ — ١٨ : «والاحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج الى الاحاطة بالمعاني المركبة إلا من جهة ليتوصل بتوسطها الى استنباطها» وفي الهامش أن في (ب) «أسباب اثباتها» وفي (أ) «اثبات اثباتها» — والوجه «أسباب اثباتها» بدلاً من «استنباطها». و «الاسباب» هي المبادئ عند الحكماء، (عن «كشف اصطلاحات الفنون»، سبب) وهذا يوافق ما سطره التوحيدي بعد قليل (ص ٨٥ س ١٣) : «العلم لا يحيط بالشيء إلا اذا عرف مبادئه» (وازن أيضاً س ١٠)

ص ١٤٢ س ١ — ٢ : «وأما بلاغة العقل فأن تكون البساطة فيه أغلب من التركيب ويكون المقصود ملحوظاً في عرض السنن». وفي الهامش قال الناشران : «وردت هذه الكلمة «السنن» في (أ) مهمل الحروف من النقط، وفي (ب) «السبب» وهو غير واضح المعنى، ولعل الصواب ما أثبتنا، والسنن : الطريق «أه — هذا، ويدفع قول الناشرين ان «السبب» أيضاً يفيد «الطريق»، من ذلك قولهم : «مالي اليه سبب» أي طريق (أساس البلاغة «مادة س ب ب»). فاذا كان مرعى العبارة ما يراه الناشران فلا حاجة

الى استبدال السنن بكلمة السبب ، وهي في أحد الأصلين ماثلة بيّنة
ص ١٨٣ س ١ تحت — ص ١٨٤ س ١ : « وان تظلمت فللدالة التي تغلط بها الخدم ،
وان خاشت فللثقة بحسن الاجاب ، وان غالطت فلعلمي بغالب الحليم ... » وفي الهامش أن
في (ا) « حاصبت » ، وفي (ب) « حاشيت » — والوجه عندي : حاصبت ، وهي اقامة
الحساب بمعنى التضييق أو المطالبة ، ويلتحم بها قوله : « حسن الاجاب » . ثم ان في « خاشت » مثل
ما في « غالطت » الواردة بعد ، ولا يقصد التوحيدي التكرار ههنا ، بل انه في معرض التقسيم

٤ — قلة التقصي

ص ٧٧ س ٦ : « فهذا نُصيري ، وهذا أشجعي » . وفي الهامش : « كذا ورد هذا
اللفظ في (ا) وحدها ، ولم نجد إلا شجعية فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في الفرق —
هذا ، وكان يحسن بالناشرين أن ينباها الى أن الكلمة قد تكون محرفة عن « الأشجعي » نسبة
الى جعفر بن حرب الأشج ، وهو من المعتزلة (توفي سنة ٢٣٦) ، وقد ذكره الشهرستاني مثلاً
في « الملل والنحل » القاهرة ١٣٤٧ ج ١ ص ٣٥ ، ٧٦

ص ١١٨ س ٩ — ١١ : « والكلام ذو جيشان ، والصدر ذو غليان ، والقلم ذو نفيان ،
ومتدققه لا يستطيع ردّه ، ومنبعثه لا يقدر على تسهيله ^(١) » . وقال الناشران في الهامش :
« النفيان من نفت السحابة الماء اذا نحّته (أي صبّته ودفعته) ، أو من نفت الريح التراب
اذا أطارته . وفي (ا) « نفيان » ، وهو تصحيف ، وفي (ب) « رميان » اه . — قد
أحسن الناشران في عدّ « النفيان » تحريفاً ، وأصابا في تغليب « النفيان » ، ولكنه من
« نفت السحابة الماء » لا من « نفت الريح التراب » ، وذلك أوفى مراعاةً للنظير لأن
التوحيدي استعار « تدفق » الماء و « منبعثه » للكلام على جريان القلم . هذا أو ان يكون
« النفيان » ههنا من « نَفَيَّان السبل وهو ما فاض من مجتمعه كانه يجتمع في الأنهار
والاخاذات ثم يفيض إذا ملاها » (« لسان العرب » ن ف ي) . ذلك ما يتعلق بتقويم
الرواية التي في النسخة (ا) ، وأما الرواية التي في (ب) وهي « زَمَيان » فغير مردودة ،
ذلك لأنها تناسب أيضاً تدفق الماء وانبعائه ، مصداق هذا ما جاء في « لسان العرب » مثلاً (رمي :
« السحاب يترامى أي ينضم بعضها الى بعض وكذلك يرمي ») ومن هنا : « الرَّمِي كَالسَّقِي » :
السحابة العظيمة القطر ، الشديدة الوقع » (راجع أيضاً المختصص ج ٩ ص ١١٣ ، باب الأمطار)
ص ١٨١ س ٣ — ١ تحت : « وقدم من شاش خراسان أبو مسلم فاشتراها (يعني حباية
القينة) بثلاثين الف درهم معزّية . » وفي الهامش أن في (ا) : « عرية » ، وفي (ب) :

« غزية » وأما المعزية ، وهي من تقويم الناشرين ، فنسبة الى معز الدولة البويهى (سنة ٣٢٠) — والرأي أن هنالك غير هذا المذهب ، إذ لك أن تقرأ : « غزية » — وهي أقرب الى صور الاصلين — نسبة الى عز الدولة البويهى (سنة ٣٥٦) ، (راجع « النقود العربية » للأب أنستاس مارى الكرملى ، مصر ١٣٥٩ ، ص ١٢٦) . ولك أن تقرأ أيضاً : « غزنية » أو « غزنوية » ، نسبة الى غزنة في طرف خراسان (« معجم البلدان ») أو اضافة الى الدولة الغزنوية (المرجع نفسه ، ص ١٢٦ . واطلب لفظة Ghaznawides في دائرة المعارف الاسلامية ، ط اوربة ، تجد ذكر نقود كان يضربها بلسا تكين وغيره في غزنة منذ المائة الرابعة ص ١٥٣ س ١ تحت : « كُنْتُس الشاعر » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين « أنيقُس » بدل « كنتس » . فقد الناشران هذا الاسم محرّفاً ولم يذكر السبب بل لم يوضحا مدى استبصارهما في تحقيق الاسم (راجع ههنا تصويب الكرملى وتحقيقه في « الرسالة » العدد ٤٨٣ . اسم الشاعر : ايبيقوس)

٥ — التحكم في رفض رواية النص

ص ١٣١ س ٩ — ١٠ : « لأن صاحب هذين الخلقين (التعصب والمحك) لا يخلو من بعض المكابرة . وبقدر ذلك يصير له مدخل فيما يراه تحقيقه من بيان الحجة » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين « وبذلك القدر » — فلا وجه للاعتراض في هذا التركيب وان رأى الناشران فيه تقدماً وتأخيراً

ص ١٤٢ س ٣ — ٦ : « واما بلاغة البديهة فإن يكون انحياش اللفظ للفظ في وزن انحياش المعنى للمعنى ، وهناك يقع التعجب للسامع ، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظن أنه يُظفر به » . وفي الهامش أن في (ب) « اختلاس » بدل « انحياش » ، وأن هذه الكلمة مما اثبتته الناشران — أقول ان « الاختلاس » أدخل في سياق العبارة ، لأن الحديث يجري في أمر البديهة ، وفي الاختلاس معنى السهرة والسرعة ، وأما « الانحياش » فيدل على الاجتماع أو الانسياق ، وليس في هذين المدلولين ما يقع على سر البديهة ، وقوامه استدعاء اللفظ للفظ واستنباط المعنى من المعنى في سرعة الخاطف

ص ١٥٣ س ١ تحت — ص ١٥٤ س ١ : « ان ملك يونان كتب الى كُنْتُس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفية ، فجمع ماله في عيبة ضخمة ، وارتحل قاصداً نحوه » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين : « أن يزوره بما » والباء للمصاحبة . فأين الشبهة في صحتها ؟ وهذه العبارة توافق : « ارتحل قاصداً نحوه »

تعقيب على مقال

فلسفة الاخلاق في الاسلام

تفضل الاستاذ الجليل يوسف كرم — أحد أساتذة الفلسفة بالجامعة المعروفين بعمق البحث وتحري الحق — بقراءة كتابي « فلسفة الاخلاق في الاسلام » وكتابة النقد العلمي له الذي نشر في الصفحة ٤٩٦ من هذا الجزء ، فلحضرتي خالص الشكر ولنقده جميل التقدير . ومع انه من المعروف ان من ألّف فقد استهدف ، ومع أنني ممن يرحبون بالنقد ما دام الغرض منه تمحيص الآراء والوصول للحق ، الا أنني مع هذا وذاك رأيت أن أتقدم بتعقيب قصير على هذا النقد ، أجمله فيما يأتي : —

١ — لو كان الغرض دراسة التفكير الاخلاقي للعرب قبل نقل الفلسفة الاغريقية لكان واجباً تقسيم الكلام في هذه الفترة الى جاهلية واسلامية ولكن المقالة الاولى ليست الا تمهيداً سريعاً لموضوع البحث وهو « فلسفة الاخلاق في الاسلام » بعد الاتصال بالأغريق . على أن الخير مهما كان الحال ، كان في تقسيم الكلام كما قال حضرة الاستاذ الناقد

٢ — اضطرني الى المقالة الثانية التي يرى حضرة الاستاذ عدم ضرورتها ما ذكرته اول الحديث فيها من ان الفيلسوف ، وان لم يكن دائماً صورة لعصره ، فانه لن يكون مطلقاً بمنجاة من تأثره به ، ولعلّ هذا التأثير يبدو واضحاً في ابن مسكويه الذي عمل جهده على اقامة مذهب في الاخلاق يقوم من اعوجاج عصره

على ان الناس ليسوا جميعاً على حظ واحد من العلم بالحياة الاسلامية في ذلك العصر ، فمن الخير ان يعلم القارئ تلك الحياة في العصر الذي يتكلم فيه عن بعض فلاسفته ومفكره . وهذه الصورة التي رسمتها لهذا العصر وان بدت قائمة ، هي الصورة الحقّة التي تؤيدها الدلائل التاريخية التي أتيت بما فيه الكفاية منها

أما ازدهار الحياة العامة في ذلك العصر فقد كان له عوامل خاصة تغلبت على مساوئه ، وأهمها كما ذكرت (ص ٣٩ — ٤٠) تشجيع الخلفاء وأمراء الدويلات الاسلامية للعلم والتفكير ورجالاتهما

٣ — يسرني أن أقر لحضرة الاستاذ بسداد رأيه في حل الاشكال الذي أوردته على ابن

مسكويه خاصاً بالفضل وأنه محمود مع أنه يزيد عن الوسط ، فإن الفضل — كما يرى بحق — وسط بالاضافة الى فضيلة أخرى هي الاحسان ، وإن كان زيادة عن وسط العدالة بالمعنى الارسطوطالي

٤ — أما ما لاحظته حضرة الأستاذ الجليل من سوء التفاهم بيني وبين ابن مسكويه فلا جناية لي فيه . ان سببه أخذ ابن مسكويه نفسه عن هذا مرة وذلك أخرى من الفلاسفة الذين قرأهم واختار من آرائهم ، فكان من ذلك ما وقع فيه من خلط وما يلاحظه الباحث من تردد في بعض الأحيان . وإذن كان لا بد من الإشارة الى ما كان منه من هذا وحسابه عليه

٥ — أشكر للسيد الأستاذ دفاعه عن الغزالي وصنيعه في الأخذ عن غيره دون أن يشير لمأخذه بأن هذا كان مألوفاً في العصر المتوسط ، لكن هذا لا يبرر مطلقاً — بالنظر الى الحق وحده — أن يغير غارات عديدة على غيره حتى في الاسلوب والتعبير ! وهذه الغارات تظهر في كتابه معارج القدس ، كما تظهر في الاحياء . وفي كتاب الأربعين الذي لا شك في نسبتها له

ومن الهام أن أذكر أنه لم ينقل عن الفارابي وابن سينا وحدهما ، بل عن غيرها الذين لم يتصلوا منهما بالفلاسفة الاغريق ؟ ويكفي أن يرجع القارئ الى ما ذكره في الفضائل التي سماها بالفضائل التوفيقية ، وهي : هداية الله ورشده وتسيده وتأييده ، والى ما ذكره الراغب الاصفهاني عنها في كتابه الذريعة الى مكارم الشريعة ، ليتبين كيف أخذ حجة الاسلام عن الاصفهاني نفس تعابيره !

٦ — أما أمنية الأستاذ الفاضل في أن يكون مذهب الغزالي في الزهد والروحية مثلاً أعلى عملياً للامم جميعها ، فهي أمنية طيبة نتمناها جميعاً . ولكن ما دامت الامم تتقاتل في سبيل هذه الحياة ، فلا خير لنا فيما يدعو اليه هذا المذهب من زهد مبالغ وفقر وجوع وخمول . أقول : « وفقر وجوع وخمول » لأن ذلك صحيح وله أسانيد من كتب الغزالي نفسه : الاحياء والأربعين على ما جاء بصفحة ١٣٦ وما بعدها من كتابنا

وبعد ، فهذا تعقيب رأيت أن لا بد منه على أهم ملاحظات حضرة الأستاذ الناقد التي لها قيمتها

والله أسأل أن أكون عند حسن ظنه بي ، وإن يوفقنا جميعاً لخدمة العلم والحق ،
محمد يوسف موسى

انه الموفق والمعين



مكتبة المقتطف

عبقريّة عمر

تأليف : الأستاذ عباس محمود العقاد

المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبعة الاستقامة في سنة ١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ م عدد الصفحات ٤٦٠

« وكنتاني هذا ليس بسيرة لعمر ، ولا بتاريخ لعصره ، على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والانتباء ولكنه وصف له ، ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته ، واستفادة هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الاخلاق وعلم الحياة . فلا قيمة للحدث التاريخي جلّ أو دقّ الاّ من حيث أفاد في هذه الدراسة ، ولا ينعني صغر الحادث ان أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، ان كان أوفى تعريفاً بعمر وأصدق دلالة عليه »
« وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه ، لانه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن « البأس » « والحق » تقيضان . فاذا فهمنا عظيماً واحداً كعمر بن الخطاب ، فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه لاننا سنفهم رجلاً كان غايةً في « البأس » ، وغاية في « العدل » ، وغاية في « الرحمة » . وفي هذا الفهم تريق من داء العصر يشفي به من ليس بميمؤوس والشفاء »

هكذا قدّم العقاد بين يدي كتابه وهو أتم قول في البيان عن مبنى كتابه وعن منحاها وعن غرضه الذي رمى اليه في كل فصل من فصوله . فأنت تقدم فيه بعينيك ورأيك وعقلك على رجل قد استوى واستحسنه . لا تجد ذكر أولية ولا ميلاد ولا نشأة ، ولا من كان أبوه ولا من كانت امه ، وانما هو « عمر بن الخطاب » وحده الذي تلقاه . ثم تجول فيه فلا ترى تاريخاً ولا موقعة ولا فتوحاً ولا اعمالاً ولا حوادث ، وانما ترى « رجل » التاريخ والموقعة والفتح والعمل والحادثة قد امتثل لعينيك قوة وفكراً وعقلاً وتدبيراً وجناناً ، هو الرجل ... هو عمر بن الخطاب

وعمر - ككل رجل في التاريخ - قد ترك للناس أعماله وخرج منها شاهدة عليه، أحسن أو أساء، وليس أحد بأكبر من أن يسيء. وقد وقع في تاريخ عمر بعض ما يمكن أن يرجح الرأي فيه إلى جانب الإساءة، وإذا كان ذلك، فإن عمل الكاتب - إذا أراد أن يؤدي الأمانة التي استحفظ عليها - أن لا يدع شاردة من الحوادث إلا اعتبرها ووزنها واستخرج منها ما يقيم له وجه الرأي، فإن من ظلم الظالمين أن تحكم بالإساءة، على رجل قد أكثر من الاحسان حتى عُرف به. وليس يستقيم وجه الرأي في مثل هذا إلا بعد تمحيص يخرج بك إلى القدرة على معرفة النية التي انطوى عليها صاحب العمل فيما عمل. ولست تصل إلى معرفة النية في العمل حتى تتمثل الرجل بجميع خصائصه ومناقبه، واطواره ومثالبه، ثم لا تزال توازن بين ما يجتمع لك حتى تعرف الحدود التي يقف عندها في كل أمر من أموره أو عزمه من عزائمه، وحتى يتبين مقدار الطاقة في كل قوة من قواه، وكيف تسيل، وإلى أين تتجه، ولم تنحرف إلى غير ما يظن بها. فإذا عرفت ذلك وأطلقته، فأنت - بعد - على الطريق ... وإذا الشيء يفسر الشيء وقد ظن أنه يعارضه، وإذا الحادث يحقق الحادث وقد خيل أنه يناقضه. وبذلك يخرج الكاتب من جملة « الكتاب المنصفين !! » - كما قال العقاد - الذين تعودوا « أن يحسدوا وينقدوا، وأن يقرنوا بين الثناء واللام ... فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب والتحيز »

ويكفي العقاد فخراً أنه حطّم بهذا الكتاب تلك الهياكل البشعة الموبوءة التي يتعبد أهلها بكلمات مريضة كالانصاف والتحقيق العلمي، ثم يرمون من سوامم بالاغراق والمبالغة والمغالاة والتعصب إلى آخر ما يملكون من كليم. ولم يكن تحطيمه لها إلا بقوة من العقل والمنطق والاستقصاء والمراجعة، حتى يخيل إليك إنه لم يدع شيئاً يمكن أن يؤتى به في الحجة والدليل إلا أتى به بيتاً كأحسن البيان لمن شرح بالعلم صدراً ولم يعاند فيه عناد من لا يعقل. ولذلك لم يحجم عن أن يقول لهم حين قال لنفسه في أول كتابه: « ان كنت قد أفدت شيئاً من مصاحبة عمر في سيرته وأخباره، فلا يجرّ جنك أن تزكي عملاً له كلما رأيته أهلاً للزكية. وان زعم زاعم أنها المغالاة، وانه فرط الاعجاب، » فالحق انني ما عرضت لمسألة من مسائله التي لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها، ولو أخطأه الصواب »

وهذا الذي فعله هو على التحقيق طريق العلم المتثبت الذي لا يخاف ولا يتردد، ولا يحاول أن يستجلب لنفسه المحاسن التي تقوم على دعوى اللسان، اذ يقول له: هذا رجل

منصف ! هذا رجل محقق ! هذا رجل واسع الذهن ! هذا رجل يرى وجوه الرأي من جميع نواحيها ! فانما هذه كلها تعاويد المرضى وتمايم الجهال
لم يدع العقاد شيئاً من مقومات شخصية عمر إلا عقد عليه فصلاً أو بعض فصل ، ومن هذه المقومات تتمثل عمر بجميع خصائصه وأخلاقه وما تدلُّ عليه أعماله من أول جاهليته الى مقتله وهو أمير المؤمنين

وما شك أحد في القوة النفسية التي كانت تندفق بهذا الرجل كأنها سيل جارف ، وكانت تسم أعماله وأخلاقه بسمة فذة بين أعمال الرجال وأخلاقهم ، وكانت على عهد رسول الله — وهو من هو — مميزة لعمر عن جميع أصحابه صلى الله عليه وسلم . ولقد كانت هذه القوة التي لا يخطئها مؤرخ يكتب عن عمر ، سبباً في أخطاء كثيرة في فهم تاريخ الدولة الاسلامية بل كانت سبباً حمل بعضهم على أن يضعوا في الدعوة الاسلامية أوهاماً مضلّة لمن لم يقف على حقيقة هذه الدعوة ، ولا على حقيقة صاحبها ، ولا على حقيقة عمر من بين أصحابه صلى الله عليه وسلم . وكان العقاد وقد تنبّه لهذا من أول كتابه فهو يثبت لك القوة النفسية في عمر ويدلك على انها مع اندفاعها وتدفقها لم تجعل صاحبها من أصحاب المطامع الطاغية التي تدفعهم الى اقتحام الحق الى باطلهم ان كان لابد لهم من ذلك . ولم يأت بها كلمة تقال لتدفع شبهة ، بل عاد اليها في الفصل الذي عقده عن « صفات عمر » من ص ٤١ الى ص ١١١ ، ثم في الفصل الذي يليه عن « مفتاح شخصيته » من ص ١١١ — ١٤١ فأبان عن تعادل القوى النفسية في عمر بحيث لا تغطي صفة من صفاته على الأخرى فتتحيّنها أو تأكل بعض حقها في العمل . فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان ، هذه كلها في عمر تتعاون تعاون الأسلحة الحربية في الغرض الذي ترمي اليه ، وأصل ذلك كله مجتمع في الخلق الغريزي الذي طبع عليه عمر ، وهو طبيعة الجندي الحازم الصارم الذي لا يلتف الى وراء اذا عرف انه لابد منتصر على العقبات التي تحيّل له لتضعف من حدّته . وقد جعل العقاد « طبيعة الجندي » هي مفتاح شخصية عمر ، ولقد وفق في ذلك أحسن التوفيق ، إذ هي التي انتظمت جميع خلائقه فرمت بها الى أغراضها ، وحمتها أن يطغى بعضها على بعض بل ان الحدود التي حدّها طبائع عمر ، وبيانه عن طاقة كل قوة من قواه ، وتحديد عمله في عمله ، قد أعانته كل العون في تصحيح الروايات المختلطة التي تروى عن عدل عمر أو رحمته أو قسوته أو لينه ، فاستطاع مثلاً (من ص ٤٩ — ٥٨) أن ينفي من قصة عبد الرحمن بن عمر وأبي مسروعة حين شربا الخمر بمصر فخذهما عمرو بن العاص ، وأعاد عمر الحد على ابنه حين حُمل اليه بالمدينة — استطاع أن ينفي كل المبالغات التي دخلت على

الرواية ، واستخرج منها الرواية الصحيحة التي تطابق الحق والعدل في غير زيادة أو نقصان وبذلك أيضاً استطاع ان يعرف برحة عمر تعريفاً لا يدع شكاً لأحد في أن عمر كان يرحم بفطرة مستقيمة لا ظلم ولا تقبل الظلم فهو يرحم الصغير والكبير ، والمسلم والذمي من أهل الكتاب سوائه ، فهو لا يرحم المسلم لأنه من أهل دينه ، ثم تذهب الرحمة من قلبه لا مريء ليس من أهل هذا الدين ، بل هما لديه سوائه فيما استوجباً به الرحمة وليست تقتصر فائدة هذا البيان عن قوى عمر على الكشف عن خصائص أخلاقه وطبائعه ، بل أعانت أيضاً على بيان أعماله كلها في تأسيس الدولة الإسلامية ، التي قاد جيوشها ووسع ممتلكاتها ، وأرسل إليها عمالها ليحكموا البلاد ، ويعلموا الناس دينهم الذي اتبعوه

فهذه القوة التي لا تقف أبداً بل تندفع الى الامام في كل وقت كما تكاد تعرفها في عمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هي نفسها القوة المكيئة المثرية التي كان عمر يوصي بها قواده وصماله . ففي عمر قوة الاندفاع وقوة الضبط معاً لا تفقد احدهما حيث يجب أن تكون . « إن البأس الذي رزقته نفس عمر لحظ عظيم ، ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها أوفى من نصيبه وهو في يديها . فلم يشجذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره » وكذلك « يقوى الرجل فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخاف الضعفاء » كما قال العقاد في فصل من كتابه

ومن قديم والناس يخوضون في موقف عمر من سيف الله خالد بن الوليد حين عزله ، ثم أتى جماعة من المحدثين — عربهم ومستشرقهم — فاستحووا فيه الى الأذقان ، فابرى العقاد لأقوالهم ففندها بالحجة التي لا يقف لها شيء ، ولم يجعلها كذلك الا هذه الحدود التي استطاع ان يميز بها أخلاق عمر وطبائعه ، فإنه استخدم كل ما استبان له من شخصية عمر بعد التحليل المقتنع ، وسرد القصة كلها بما يرضيه العدل والمنطق والتاريخ ، واذا شئت أن تثبت من ذلك فاقراً من ص ٣٣٨ — ٣٦٤ فلعله خير ما كتب الى اليوم عن هذه المسألة التي ضل فيها من ضل

ان كل فصل من هذا الكتاب يستوقف الناظر فيه ، فلا أدري ما آخذ منه وما أدهى ولقد جاهد العقاد فأبلى بلاءً حسناً... انما كان يقاتل تاريخاً مختلطاً مبغثاً قد أهمله أهله ، وآراء باغية قد رمى بها قوم عزتهم عن أنفسهم قوة أيامهم وعلو سلطاتهم ، وتكاذيب قد تجعل بها المستضعفون من الكتاب . ولقد دل بهذا الكتاب على ان التاريخ العربي والاسلامي اذا استوى له كاتب قد قرر المذهب على أصول صحيحة ، استطاع أن ينفي عنه

زغله وأن يبعثه بعثاً جديداً بعد تراكم الأتربة التي قبرته أجيالاً طويلاً
 ليس من الهين أن تكتب التاريخ الاسلامي على نمط جديد ، فان عدة الكتاب لهذا الامر
 تتنازعها قوى مختلفة يجب ان تتوفر للكتاب ، ولعلها قد توفرت في العقاد ، فهو أديب
 يتلقف معاني الكلام وينفذ الى ما وراءها ، وهو مفكر لا يدع للفكر منهجاً الا ولج اليه ،
 وهو واسع المعرفة فهو يعرف المجهول من المعلوم بأدق فكر وأحسن تقاض . وبذلك استطاع
 أن يكتب للتاريخ الاسلامي فصلاً خالداً في شخصية خالدة هي الفاروق « عمر بن الخطاب »
 محمود محمد شاكر

فهرس الادب العربي في لبنان (١)

الادباء وزعاتهم ومؤلفاتهم

يؤذن لي اليوم ، من هذا المذيع ، الذي دوى ويدوي في الأجواء العربية ، أن أرفع
 الصوت باسم الوشاح الباقية والتاريخ المشترك والحروف السود في كتاب الضاد الأبيض .
 يؤذن لي اليوم في القاهرة المعزية موئل القلم العربي منذ فجر النهضة ، أن أفرغ في هذه
 الهنيئة ما أحمله ويحملة معي الجيل الطالع في لبنان العربي من حب للكنانة ووجد بها وكد
 معها من أجل الحق والخير والجمال

تستريح العين في مخطط الدنيا على صفتي اللقاء الذي أرادته اسماعيل العظيم بين بحرين يوم
 فك عقدة السويس ما وراء الطور . وتروح القوافل وتجيء على سيف هذا المتوسط ويزدهي
 الأدب العربي ببشائر نهضة حبيبة بعد أن عانى الجمود طوال خمسة أجيال ، ويتلاقى جهد من
 عندهم ومسعى من عندنا ، وتلتهم الحروف على الحياة وتضحك أساور البيان بالبشر ، وتتعالى
 على قضايا الاجتماع أصدااء أدب قوي يغرق الدنيا من جديد في موجة عربية . أدب تزقرق فيه
 طيور الصباح وتغني مياه الأنهر والعيون وتحقق وجوه الحقول بألف لون ولون ، وترف
 الأطياب مع النحل والفراش على ثغور الورد والأقاح والياسمين ، أدب حر لا يقيدته غير الجمال
 المطلق ، فائته امتناع الحواس وامتاع الشعور قبل كل شيء . أدب جديد لا يتعرف الى النماذج
 والتقليد الأبله ، يعلن عن الحياة ويكيفها بطريقة إحيائية ولا يصورها قط . فهل لي قبل ان
 أدخل واحة هذا الأدب العربي في لبنان ، أن أشيد بيد مصر السخية وبما كان لها وما سيكون
 من الأثر في توجيه خطى الفكر في لفظة من أخطر لفئات التاريخ

غاب انقراض عهد « مدرسة الكادحين » عند نهايات القرن التاسع عشر تحرر الأدب في
 لبنان ، وزلقت الزوارق على كف هذا الأزرق الهادر ، تحمل الى أميركا « الأندلس الجديدة »

نعيملاً أقام للعروبة في العالم الجديد صرحاً يبق على الدهر . بينما كان لبنان ، هذا الجبل الحالم الحائر بين الشرق والغرب على مفترق الطرق ، لا يكاد يجد سبيله في بلبلة الأحداث . ويومئذ كان أمين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وفوزي وميشال وشفيق العلوف وإيليا أبو ماضي والشاعر القروي يؤكدون حدثاً جديداً في العالم الجديد ، وظل طور التجارب أمداً غير قصير ، وفي تلك الأيام كان بشاره الخوري يلون أحداقه بالخيال الرائع وينذر نفسه للوثبة بالشعر في لبنان إلى مراقي الفرايس المصرية ، مسجلاً في مقاطع عميقة الخطرات بواده الألم الذي يرح بالجبل اللبناني ، إلى جانب مقاطع غزلية ساحرة نسجتها سداجة النفس في مختلف حالاتها . ويعود إلى لبنان من باريس عمر فاخوري ، هذا الأديب الساخر ، فاذا قلم يرفل بالمتعانت على القرطاس ، قلم له طعم ولون وشيعة ، تتلاقى في شق زرق البحر بسمرة الصحراء ، وترحب المكتبة العربية بـ « الباب المرصود » و « الفصول الأربعة » و « لا هوادة » هذه الكتب التي أخرجها عمر فاخوري زلنى إلى الفن المارد

وفي زقزقة السرب الفتى من بلابلنا الغردة ، غمس شوقي العظيم عينيه ، فاذا أمين نخلة أديب الظل والماء والحياة الريفية ، والوله الذي لا ينقطع في دنياناً أجره ، واذا الياس أبو شبكة بودلير لبنان ، واذا ديباجة صاحبة الرواء تنضح بالخير الكثير ، وتصغي الأجواء العربية إلى ابداع وخلق في شعر صلاح لبكي وسعيد عقل . وثمة فوق هذا شعر بلغة القرية يدخل إلى القلب دون استئذان أهل الكوفة وأهل البصرة ، تربع به رشيد نخلة على النجوم ، ورفع به ميشال طراد « ميسترال » لبنان إلى الجنة وينبغي أن أتمهل ههنا قليلاً فهؤلاء أترابي في الجرس البعيد ، والخيال المغدق ، استطاعوا أن يعجلوا في نقلة الشعر العربي من الجمود إلى الحياة على نحو لا أعرف له مثيلاً في أي بلد عربي آخر . فالشعر عندنا ظل حالة لا نعيمها لغة ، حالة تردد وذبول بين خاطرة وخاطرة بين هاجس وهاجس ، الشعر عندنا انفلات من مواضع النثر وما ينبغي للنثر من وعي وفكرة . الشعر رقص على ضفاف الموسيقى وإخلاص غامر لشتات الأخيلة والاهتافات في جو الوجدان وعالم العرق والرغبة

وفي القصة هذه الجنية التي طرقت أخيراً باب الأدب العربي ، يستطيع لبنان أن يفخر بمجده في حقلها المترامي الأطراف ، فكرم ملحم كرم في « أبونا انطون » وغيرها بارع السرد موفق الوصف ، وتوفيق عواد في « الرغيف » و « قيص الصوف » إنساني النزعة حميم الصلة بأعرق وأعنتق النوازع الواقعية ، و خليل تقي الدين في « الإعدام » أنيق الأسلوب عميق الغوص في عوالم تضج بالحكايات والتهائم والاساطير . ورضوان الشهبال يمنح بحجاءة إلى القصة المثالية

أما في الصحافة ، فسيظل جبران التويني صاحب «جريدة النهار» أحفل رجالها بتوجيه الرأي وهو في أسلوبه على بيان عربي مشرق وفكرة نيرة ، وفي الصحافة الادبية اليوم ، رغم أزمة الورق ، وثوب وتطلع الى الكمال ، فمجلة «الاديب» البيروتية مرآة لخوالج الجيل الطالع في الادب والفن والسياسة والاجتماع ، ومجلة «الطريق» وجه للبعث الحق وكتابها رثيف خوري ، قدري القلعي ، انطوان ثابت ، طليعة المتحررين ، وصوت لبنان في جهاده من أجل نصرة المبادئ الديمقراطية ، وجريدتنا «الجمهور» و«المكشوف» مسرح لاقلام فنية ، ونتاجهما يحسر عن ثقافة رحبة وأمل معطاء

وبعد ، فهذا جانب من فهرس الادب في لبنان ، وما أخالي أحصيت شتى وجوهه ، ولكني أطمع ويطمع معي لبنان العربي في أن تنظر مصر العربية الى جهودنا الوداع ومحاولاتنا الخلصة
صلاح الاسير

مجرى الادب في مصر سنة ١٩٣٨

هذا موضوع المحاضرة التي كان ألقاها صديقنا الدكتور بشر فارس في مؤتمر المستشرقين المنعقد في بروكسل صيف سنة ١٩٣٨ وظهر في «مجلة القاهرة» La Revue du Caire (اغسطس ١٩٤٢) التي يشرف على اخراجها العالم الفرنسي الأستاذ جاستون ثييت . وقد نظر الدكتور بشر في مئة كتب ظهرت في تلك السنة هي : « في منزل الوحي » لحسين هيكل ، و « على هامش السيرة » لطف حسين ، و « ساره » للعقاد ، و « في الطريق » لبراهيم عبد القادر المازني ، و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، و « سندباد عصري » لحسين فوزي . وقيمة هذا البحث في طرافه المعالجة وملخصها أن الكاتب يستشف مجرى الحياة الاجتماعية من التأليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والثقافية والارادية ويقيّن النزاعات المختلفة من ثنايا الكتب . وفي ذلك فائدة كبيرة لتحسس مدى الانقلاب الذي يعانيه الشرق العربي الآن . وما نظن ناقداً انصرف الى هذه الجهة من النظر قبل اليوم . فالكتاب معبر الى الفحص عن المجتمع وأما قيمته الادبية — في هذا النظر — ففي الحل الثاني . وقد وفق الدكتور بشر لتطبيق نظريته الطريفة وهو يتبصر في تلك الكتب الستة (وقد أهمل مسرحيته « مفرق الطريق » المنشورة في المقتطف سنة ١٩٣٨ وفيها أيضاً نزاع ١) فكشف عن الأزمات التي تضطرب فيها ولا سيما أزمة تجاذبنا بين الحضارتين الشرقية والغربية وأزمة تحرير المرأة . ويسن كل ذلك في أسلوب دقيق ولغة فرنسية عالية . ولعلمه يخرج هذا البحث في لغتنا ويضم اليه الابحاث الأخرى التي وضعها في الأدب العربي الحديث سواء في الفرنسية أو العربية

تاريخ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي

للاستاذ محمد عبد الله عنان — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في ١٧٥ صفحة من القطع الكبير
كان في النية أن تحتفل القاهرة بعيدين قوميين : أولهما عيد القاهرة الالفي ، وثانيهما
عيد الجامع الأزهر الالفي . وهما مناسبتان لا يصح المرور عليهما بالأغضاء والاغفال . وقد
اهتمت الحكومة والدوائر الأزهرية وقتاً ما بالأمر وألفت لجنة العيد الالفي للقاهرة كما
عُين وقت العيد الالفي للأزهر في أمس القريب

وقد رأى الأستاذ المؤرخ الجليل محمد عبد الله عنان ألا يدع هذه الفرصة تمر بغير أن
يقدم فيها الى القراء ثمرة طيبة من ثمرات بحثه المؤسس على العلم والتحقيق ، فألف كتاباً
في تاريخ الأزهر في العصر الفاطمي وقصد به ان يكون هدية منه الى هذا المعهد الجليل
في يوم ذكره الالفيه ، وأضاف اليه تكملة حتى العصر الحاضر

وعجيب جداً ان يتصدى للكتابة في تاريخ الأزهر في عصر من عصوره واحد من غير
أبنائه — وهم بحمد الله كثير — كأن تلك الجامعة العريقة لم تجد في ابنائها اليوم من ينهض
ليؤرخ لها بعض الحقب . فاذا عددنا عمل الأستاذ عنان من ناحية قياماً بحق التاريخ الذي
سبق الأستاذ في مضامره . فانه يعد من ناحية أخرى وفاةً لذكرى أثر اسلامي جليل . والوفاء
قد يكون في الابناء وغير الابناء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان الأستاذ عنان كان له — على ما بين في مقدمته —
نصيب في بحث تاريخ تأسيس القاهرة وانشاء الأزهر الشريف ، عندما رأت لجنة العيد الالفي
أن تسترشد برأي بعض الهيئات العلمية . فرأت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في مذكرتها
أن يكون الاحتفال به (انشاء القاهرة) في رمضان سنة ١٣٦٢ هـ وكان من الواضح
— على رأي الأستاذ عنان — ان القول باعتبار واقعة دخول المعز لدين الله مدينة القاهرة
في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ واتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية أساساً لتحديد عمر القاهرة
الالفي — وهو رأي كلية الآداب — قول لا يسوغ الأخذ به في هذه المناسبة التاريخية . لأن
المقصود كان احياء ذكرى انشاء القاهرة لا ذكرى قيام الخلافة الفاطمية فيها . ولما كانت
القاهرة المعزية قد وضعت خططها في مساء يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ فانها تكون قد
استكملت الف سنة من عمرها في ١٧ شعبان ١٣٥٨ الموافق لليوم الثاني من أكتوبر ١٩٣٩
اما الجامع الأزهر فقد كان البدء في انشائه بعد أن وضعت خطط القاهرة المعزية بنحو
تسعة اشهر في ٢٤ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ وافتتح للصلاة بصفة رسمية في يوم الجمعة السابع
من رمضان سنة ٣٦١ هـ . فاذا أخذ بتاريخ الانشاء فان الأزهر يكون استكمل الف سنة من

عمره في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ الموافق ١٦ يونيو ١٩٤٠ وإذا أخذ تاريخ اتمامه وافتتاحه للصلاة فالعيد يقع في يوم الجمعة ٧ رمضان سنة ١٣٦١ الموافق ١٨ سبتمبر ١٩٤٢ والاستاذ عنان يؤثر التاريخ الثاني ، وهو الموعد الذي كان مضروباً للاحتفال هذه السنة ويظهر ان ضيق الوقت ، ورغبة الاستاذ المؤلف في انجاز الكتاب في الموعد المناسب لم يمكنه من اطالة البحث وتوسيع آفاق الاستقصاء كما كان يشتهي وكما عودنا وقد وقعت في الكتاب هنات في اللغة والطبع الا أن ذلك لا يقلل من قيمة الكتاب ولا يغض من شأنه . وقديماً قالوا « لا تعدم الحسنة اذا ما »

وقد أورد الأستاذ بعض الألفاظ التي نقلها عن الخطوط والنجوم الزاهرة وغيرها من غير أن يشرح معناها . وهي ألفاظ تركية تحمل دلالات خاصة في زمانها أو لم يعد لها الآن وجود أو استعمال مثل كلمة « اسفيسلار » الجند . فما معناها ؟ أليس من حق القارئ على المؤلف أن يطلب تفسيراً لمثل هذه الكلمة ؟ أما منظومة ابن سعد الدين المصري المخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ والتي أورد منها الأستاذ بيتين في ص ١٣٦ فهي لا تجري على قواعد العروض ، وكان الأولى به أن يشير الى ذلك وهو في معرض الحديث عنها وعن ناظمها . والكتاب برغم هذه الهنات عمل يستحق عليه مؤلفه الفاضل أجزل الشكر ، فهو الآن ثالث ثلاثة كتب عملت في تاريخ الأزهر ، والكتابان هما رسالة السيد مصطفى بيرم في مؤتمر المستشرقين بهامبرج ، وكتاب كنز الجوهر في تاريخ الأزهر للشيخ سليمان رصد الحنفي

محمد عبد الغني حسن
مدرسة الحديوي اسماعيل الثانوية

المفكرة الريفية لفؤاد افندي

بقلم الأستاذ أمين نخلة — طبع مطبعة الكشف في بيروت — ١٢٥ صفحة من القطع الوسط
الأستاذ أمين نخلة شاعر من الشعراء الذين سلمتهم الطبيعة مفاتيح أسرارها فهم يكشفون بين الفينة والفينة عن جمالها ، ويزفون هذا الجمال في نغم عذب جميل ولقد شاء الأستاذ أمين أن يدع ريشة الشاعر ليحمل ريشة الرسام الماهر مطلقة من قيد الثقافية ، لينقل إلينا صوراً فائقة من ريف بلاده ، فلم تفته روح الشاعر وإن فاته نغمه . وانك لتنتقل لنظرك بين صحائف كتابه وكأنك لست بين صحائف بيض وسطور سود ، ولكنك بين مروج خضر وجداول فضية ورقاقة وعيون من الجمال ثرة ، وتكاد تشم عطر الزهر أو تكاد تتسمع همس الجدول ومنافاة الأطياف
وان القارئ لهذه المفكرة لينقاد بسحر الأمين الى بيت فؤاده بين بلاد الجبل على درب

الريف ليتسمع أخباره وأغانيه ، ويرى مقاطع تمثيلية تجري حوادثها في هذا الريف ، وليتلقى من كتاب الطبيعة المبسوط فيه قصائد ومطالعات وبذوراً وأمثالا ، حتى ينتهي به المطاف الى بيت فؤاد افندي ليسمع بعد ذلك منه قصة الفردوس الأرضي وبعد فلقد سحرتني ريشة أمين تلك التي وصفها فقال: «قصبة نبتت في بسيط أفيح وحاشت على طلاقة ، وضياء ، وماء ، تلعب بين الرياح بلا معارض» وإن « هذا القمم السحري » الذي غمست فيه لأبهج عطراً من أحقاق المسك في ايدي الكثيرين ، وإذا كنت مديناً له بتلك الساعات الحلو التي قضيتها في ظل كتابه ، فأني مدين للقارئ الذي شوقته الى هذا الكتاب بأن أقنطف له شيئاً من هذه المفكرات ، فأناوله بذرة من بذور الريف هي قوله المؤلف « ولد النمن يوم قالت الحية : أطيّب أكلة في الفردوس — التفاحة ، بدلاً من ان تقول لها كلي التفاحة » بهذا الاستهلال تهم أسلوب المؤلف وأفكاره ، وتستطيع ان تسير معه في دربه وتستمع اليه يصف عنقود العنب فيقول :

« خذ بيدك في شهر ايلول ، عنقوداً من العنب وارفعه الى عينيك ، وانظر الى نور الشمس ، من خلال الشفوف ، وتأمل ! لا علة الجوهرى أحلى ، ولا خزنة البخيل أشهى من عنقود ، ! في عنقود واحد من العنب ما يملأ العين من السعادة »

ولنصغ اليه وهو يصف الفراشة البيضاء تتنقل من زهرة الى أخرى فيقول :
« نخط وتنفض ، ولا حطت ولا نهضت ، بل جاءت في سياق الهواء ، تلمس بطرف جناحها ورقة النبتة ، فلما أحست الندادة ، من قريب ، أقلمت بالجناح ... وبأ لطف مقامها بين ورقتين ! تسائل ، حينئذ ، نفسك : أخضراء ، أو بيضاء ، ! ونبات بروح ، أو روح بنبات ؟ ! »
وهو يرى المرأة في الريف تعمل الى جانب زوجها ، روحها في الشجر حياة ، ونفسها في الزهر شذى ، فيمجدها ويقول :

« المرأة في الريف أجمل منها في المدينة ، وشأنها فيه أمثل ، وفضلها أتم ، وهي في حقل السنبيل ، أو على القطف ، خلف العنب ، أكرم يدأ منها في جمعية الفنون الجميلة ... فلا جر على قدر المشقة »
وما أجمل مرثيته لدالية العنب فهي نفحة أمين الشاعر على لسان أمين الناصر :

« يا أبرك حمل ، على ألطف ساق ! هبط حظك ، في الدنيا الى الارض ، وقام حظ البلباب ... ولم يشفع بسمائك المرفوعة ، انها كالسماء ، تعطي من فوق ، وتجود بلا حساب ، وانما تنزل العصافير على أطيب مائدة ، وتبل القلوب بأعذب ماء ... كل تمر ، في الفم ، يبلغ طعمه حيث يبلغ طعم الادم ، ثم يقف — عدا تمارك ! فهي التي تنفذ الى الاحشاء ، وتلفل وراء الشاعر . وكل ظل ، مداه لا يتجاوز العين — عدا ظلالك ! فهي التي تمد الى القلب ، فتخضر الاشواق ، وتندق البشائر ، لرفاف بتلك الحلو ... فيا خير أم لخير بنت : أسفا عليك ! »

هذه نفحات من المفكرة الريفية التي قدّمها الأستاذ أمين نخلة تحفة جميلة للأدب . وانه لوحي الطبيعة في أجمل مظاهرها ، مظاهرها الساذجة التي يتخفى وراء سداجتها أعمق أسرار الجمال ، وأجل ما أبدع ذو الجلال . فالى القصبة التي حاشت على الطلاقة والى القمم السحري الذي الغمست فيه أقدم خالص الإعجاب

بَابُ الْإِخْبَارِ بِالْعِلْمِيَّةِ

تضليل طياري الاعداء

في الحرب الحالية

ضلت السبيل ، فألقت قنابلها على الحقول في الأرياف البريطانية . ثم توخى البريطانيون تحسين تلك الطريقة فاستخدموا أمواجاً لاسلكية طولها كطول الأمواج الألمانية فحرفت الأخيرة عن مجراها المقصود ، فغدا طيارو الالمانيين يلقون قنابلهم في الأماكن غير المرومة . وكانت الطائرات الألمانية القاصدة الى بريطانيا ، تلازم الموجة اللاسلكية الموجهة الى بريطانيا نفسها (التي اخترعها الانكليز تضليلاً لهم) حتى ينفذ منها البنزين فتضطر الى القاء قنابلها في البحر وتعود أدراجها بصفقة المغبون

تظاهر الطائرة للافلات

ومن الحيل المألوفة عند قادة الطائرات حين وقوعهم في مأزق حرج ، تظاهرهم بأن الطائرة قد أصيبت وأنها على وشك أن تهوي الى الأرض وأن زمامها قد أفلت من يد الطيار . وقد جهز الالمانيون بعض طائراتهم الحربية بمواد كيميائية تولد سحباً من الدخان لتضليل الناظر اليها فيحسبها قد احترقت . ولهذا الحيلة مثل في حرب الغواصات اذ

الامواج اللاسلكية وتضليل الطائرات إن في الحرب الجوية العصرية حيلًا حربية جديدة كثيرة فأصبحت معارك الدهاء دائرة الرحي جنباً الى جنب مع معارك الرصاص والقنابل المشتعلة . وحينما شرع الالمانيون في استعمال الأمواج اللاسلكية الموجهة بغية ارشاد طائراتهم الى أهدافها في انكلترا ، اهتدى علماء الانكليز الى جواب محكم أجابوا به أعداءهم . ذلك أن الالمانيين أطلقوا من القارة الأوروبية موجتين لاسلكيتين موجهتين ، من ناحيتين تبعد احدهما عن الأخرى بعداً شاسعاً ، الى الهدف المقصود في انكلترا ، لتستطيع قاذفات القنابل النازية الليلية الاسترشاد باحدى تينك الموجتين اللاسلكيتين حتى تلقي قنابلها عند تقاطع احدهما مع الأخرى . فتنبه خبراء اللاسلكي البريطانيون الى تلك الحيلة فعملوا على احباطها اذ أنشأوا تقاطعاً كاذباً بموجة لاسلكية من عندهم فلما عمدت الطائرات الألمانية ، قاذفة القنابل ، الى شن اغاراتها على أهدافها ،

تلك الشوارع خاصة بأقفاص كبيرة (مما تستعمل لوقاية السلع المراد نقلها من مكان الى آخر) وكان في كل قفص منها مصباح كهربائي . وذلك من شأنه جعل الحي المشار اليه كأنه من أحياء مدينة برلين الحقيقية ، وقد أطفئت مصابيحها أطقاءً غير تام . وامعانا في التستر نصبت في المدينة المزيفة طوائف من المدافع المضادة للطائرات وقاية لها من قاذفات القنابل المعادية

ولم يكتفِ الألمانون بتزييف برلين وحدها بل أنشأوا مدينة على هذا النمط في كولوني وذلك عند منعطف عجيب لنهر يشبه انحناء نهر الرين عند كولوني الحقيقية . وأذيع قبيل هجوم المانيا على روسيا أن الأولى أنشأت مدينة مزورة تقليداً لمدينة بلويستي Ploesti الرومانية حيث يكرر النفط الروماني فقلدت مصانع التقطير الكبيرة بإنشاء صهاريج للنفط مصنوعة من الخيش ، تنبعث منها سحب كثيفة من الدخان الاسود الكيميائي عند قذفها بالقنابل

مصانع مضللة

وفي انكثرتا حينما يظن أن مصنعاً من المصانع المشهورة سيكون هدفاً لقنابل الطائرات الألمانية المغيرة ينشأ على مقربة منه مبنى آخر مزيف رخيص . ثم تطفأ مصابيح المصنع الحقيقي أطقاءً تاماً ، على حين تباح اضائة بعض مصابيح المصنع

تطلق الغواصة مقداراً من النفط والحطام المختزن لهذا الغرض فيطفئو على سطح الماء فيظنها الاعداء قد دمرت

نيران مفتعلة لتضليل الغيرات

وفي فصل الصيف الماضي كان رجل أميركي نزيل برلين يسير في احد الشوارع القريبة من تلك العاصمة فعثر على حيلة من أعظم حيل الحرب اتقاناً . وهي شبكة من الأسلاك ممدودة فوق حقل غير مسيَّح . فجعل السائر ينعم نظره في ذلك الحقل فتبين أن الأسلاك ممتدة من خندق ومنشرة على شكل مروحة متصلة بمبانٍ صغيرة على ربع ميل من الخندق . ولم يكن لها تيك المباني سقوف أو زجاج نوافذ . وكانت أراضي المباني مفروشة بسحالة الخشب وغيرها من الفضلات . وكانت الأسلاك متصلة بمفتاح كهربائي في الخندق يُدار بهزة صغيرة فيشعل السحالة فتندلع أسنة اللهب ليلاً من النوافذ والسطوح الخالية من السقوف فتبدو لناظرها كأنها نيران حقيقية بغية خدع قاذفات القنابل البريطانية التي تشن عليها الاغارات الجوية الليلية

تقليد الأحياء والمدن

وأتيح أيضاً لذلك المخبر الأميركي الاستدلال على حي (من مدينة برلين المزيفة) إذ توغَّل فيه فشهد شوارع ومصانع وسكك حديدية مقلدة ممتدة أميالاً . وكانت

أليستر Alster وهو بحجة الطائرات المغيرة على قلب المدينة ، نصب الالمانيون طائفة من الصقالات والأرماط بطريقة جعلت ذلك الحوض يظهر لطيارى الاعداء كأنه متقاطع مع الشوارع والمباني المحيطة به حيث أنشأوا جسراً كاذباً وحوضاً مزوراً في الخليج بعيدين عن الحوض الحقيقي . ثم ستروا السكك الحديدية القريبة منه ودهنوا الشوارع الموازية للمحطة بألوان زيتية مختلفة . ومع ذلك فقد كشفت مخباتهم آلات التصوير التي تحملها الطائرات البريطانية بعد أن تفقدتها أساييس

وتنجح التعمية في كثير من الأحوال اذا صار الهدف غامضاً أمام أبصار الطيارين إذ الطيار يرى الأشباح مائلة تحت عينيه . وتقطع الطائرة الحربية خمسة أميال في الدقيقة وهي على ارتفاع عشرين الف قدم من الأرض وعلى الطيار حينئذ أن يبصر هدفه على عشرة أميال ثم يتجه صوبه وهو على خمسة أميال منه . ويلقي قبلته على بعد ثلاثة أميال من الهدف . فاذا كان الهدف المستر مما لا يشاهد إلا من وضع عمودي فوقه تعذر على الطيار اصابته

الطبيعة والتصوير يكشفان الخيل والطبيعة كثيراً ما تفتي سر التعمية . ومثال ذلك أن مطاراً المانياً مجاوراً لمزرعة تميزها من جاراتها تميزاً جلياً خنادق الري « المصارف » أراد النازيون اخفاء معالمه

المقلد فيخيل لناظرها انها قد خالفت قانون منع تطرق الأضواء الى الخارج بعض المخالفة فتشن الطائرات المعادية اغاراتها عليه حتى تنفذ قنابلها الثمينة بلا جدوى

وقد تم اتقان أساليب الاستتار الحربي في انكترا اتقاناً مدهشاً فدهنت المناطق التي تشغلها المصانع لتشبه مباني السكن الكبيرة وأخفيت المنشآت الحربية اخفاءً دقيقاً إذ جعلت كأنها منشآت قموين السيارات بالوقود فتصدف عنها المغيرات . فأصبح المرء يشاهد مدارج الطائرات المزينة مصنوعة من الجير أو التراب الأبيض ويقاطع بعضها بعضاً في مطارات مزيفة على حين تخفى المطارات الحقيقية بانشاء شوارع مزيفة فيها أمثلة أخرى متنوعة

وقال رقيب أميركي عاد حديثاً من بريطانيا العظمى إن ثلث المطارات في بعض أرجائها مزيف وثلثها حقيقيان . وقد غير الالمانيون شكل برلين تغييراً شديداً يكاد يخفيها عن عيون الطائرات المعادية . فوضعوا فوق سقوف بيوتها أزهاراً ذات أوراق وأحاطوا بركها بأرماط مغطاة بالخضرة وغطوا بحيراتهم الصغيرة تغطية تامة بشباك تمتد فوقها من شاطئ الى آخر . وضيقوا شارع Unter den Linden أتردن ليندن وهو أبرز معالم برلين ، الى نصف عرضه الحقيقي وذلك باقامة صقالات وشباك مختلفة فيه . وفي مدينة همبرج حيث يوجد حوض نهر

التصوير بالاشعة التي تحت الحمراء
ومن المغالطة في القول ان الالمانيين
واليابانيين قد بزوا الحلفاء في اختراع ضروب
الخداع الحربي اذ تيسر لسلاح الطيران
الاميركي التفوق في التقاط الصور بالاشعة
التي تحت الحمراء وهي تكشف اسرار الصور
المرسومة بالزيت وتوضح الفرق بين
الأوراق النباتية، صناعية كانت أو طبيعية،
فأضحى ذلك السلاح مجلياً في التصوير
الجوي الليلي وفي استعمال الافلام الملونة التي
تنتج الصورة كما تراها العيون البشرية. وصار
المهندسون الاميركيون خبراء في فن العمى
الحربي المقصود به وقاية العتاد على اختلاف
انواعه ومثال ذلك الاكواخ المزينة التي تشاهد
في نيو انجلند، والمصايف التي تنشأ في شبه
جزيرة فلوريدا، وهي وسائل مدهشة لمواراة
المخازن السرية المبنية تحت الارض لاختفاء
البنزين اللازم للطائرات

وفي اميركا قاعدة من القواعد الحربية
أنشئت على شكل مزرعة مستوفاة المعدات
اذ تحتوي على مقبرة مزينة وبرج للباطات
يبدو كأنه قبة كنيسة. وقد زرعت في
بعض أرجاء الحقل حشائش مختلفة يخيل
لناظر اليها انها حقول حقيقية. اما المناطق
الاحتوية على المصانع الساحلية الاميركية
الضرورية للحياة فقد استعمل لاختفائها
الضباب الصناعي عوض جندي

فرسموا بالالوان الزيتية خنادق كاذبة على طول
المطار فصورتها آلات التصوير البريطانية
كأنها حقيقية. فما أن تجمدت المياه الحقيقية
التي كانت جارية في الخنادق حتى برزت
للعيان الخنادق الكاذبة المصنوعة بالالوان
الزيتية كأنها لوحة اعلان من اللوحات التي
تضاء بغاز النيون

واذا قصد الاستخفاء بالاستار التي تصنع
من أوراق الاشجار الصناعية، وجب
تغييرها طبقاً لفصول السنة كما ينبغي تغيير
الأوراق الطبيعية يومياً لأن اليخضور
الذي فيها يتلف عاجلاً ويظهر تلفه في الصور
الفوتوغرافية التي يلتقطها الطيارون. وآلة
التصوير الضوئي هي المرجع الوحيد الذي يعول
عليه الرقيب الجوي في استكشاف حيل
المضللين. وقد تظهر الرسوم الزيتية في صورة
فوتوغرافية واحدة كأنها حقيقية، ولكن
اذا التقطت صور البقعة نفسها صباحاً
وعصراً تجلت حقيقتها اذ تتغير الشمس،
ولا تتبدل الظلال المرسومة فيبدو غشياً
وينكشف أمرها

وقد أظهرت المصورات البريطانية المجسمة
للصور «الاستيريسكوب» كثير أمن الخدع
الألمانية لأنها تلتقط صورتين ضوئيتين
جويتين في آن واحد، فاذا خصصنا معاً
«الاستيريسكوب» ظهر انها صور مرسومة
بالزيت لا أشياء حقيقية مجسمة

قنبلة الاعماق والغواصة

الصعود الى سطح الماء والغالب ان يجهز عليها بقنابل المدافع، او قد تغوص الى اغوار سحيقة فيسحقها ضغط الماء العظيم، . وقاما تذاع انباء الفوز على الغواصات لأن قيادة أساطيل الدول المتحدة لا تريد ان تتبع الاميرالية الالمانية ما يمكنها من معرفة المناطق التي تغرق فيها الغواصات لارسال اخرى تحل محلها. ومطاردو الغواصات أنفسهم لا يعرفون أحياناً هل غرقت الغواصات التي قذفوا قنابل الاعماق عليها ولا يسعهم ان يستوثقوا من ذلك بمجرد الاعتماد على زيت أو حطام يطفو منها على وجه الغمر. فالامان يتوسلون بهذه الوسائل ليصلوا مطارديهم وفعل قنابل الاعماق مردّه الى ان انفجار المادة المنفردة تحت سطح الماء يولد قدراً كبيراً من الغاز عند حدوث الانفجار فيدفع الغاز الماء امامه دفعاً قوياً، والماء لا ينضغط أو هو قليل الانضغاط كثيراً فيصدم جوانب الغواصات صدمة شديداً، كأنها هو مطرقة تطرقها فتختل اجهزتها في الداخل او تنفك ألواحها او تضغطها فتسطحها

بين قنبلة الاعماق والغواصة عدداً مستحكما. فرجال الغواصات الالمانية يسعون جهدهم لقطع خطوط المواصلات البحرية التي تعتمد عليها الدول المتحدة في غير ناحية واحدة من نواحي جهدها الحربي. ورجال الاساطيل البحرية المتحدة يبذلون طاقتهم لاستكشاف الغواصات ونسفها بقنابل الاعماق تحت الماء أو بقنابل المدافع على سطحه

وقد أثبت التجريب ان خسير وسيلة لمكافحة غواصة تحت الماء، ان تلقى اربع قنابل من قنابل الاعماق في المكان الذي تكون فيه الغواصة او يظن انها فيه. والقاء القنابل الاربع يكون في مربع او شبه مربع فتلقى كل قنبلة في زاوية من زواياه وتضبط القنابل حتى تنفجر جميعها في وقت واحد وعلى عمق معين، لكي تتأثر الغواصة بفعلها من جميع النواحي اما ما يحدث للغواصة فلا يعرف على وجه دقيق. فاذا انفجرت القنابل قريباً منها فقد تسحقها فتسطح وتغرق بمن فيها. واذا كان الانفجار على بعد ما منها، فالصدمة القوية قد تعطل اجهزتها وتضطرها الى

فيتامين K ونخر الاسنان

الجراحية والتوليد. فمن أغرب ما عرف عن المواليد حديثي العهد بهذا العالم ان مقدار «البروترومبين» فيهم قليل، وهو مادة من المواد الأربع اللازمة لتخثر الدم. فأصغر جرح يصيب هؤلاء المواليد عند الولادة

فيتامين K هو الفيتامين المشهور الذي يمنع النزف. وقد كشف العالم الدنماركي «هنريك دام» فعلة من سنوات فاحتفي به في الدوائر العلمية والطبية أعظم احتفاء لأن فائدته لا تقدر بمال ولا سيم في العمليات

كشفت حديثاً . فقد نشر جماعة من الاطباء الاساتذة بمدرسة طب الاسنان في جامعة نورث وسترن بحثاً في مجلة « مينس » اثبتت فيه ان فيتامين K سوائاً طبيعياً كان ام مركباً بالصناعة والكيمياء ، يحول دون نخر الاسنان ، لانه يمنع تولد الاحماض في الفم واليها مرد النخر . وقد جرب هؤلاء الباحثون تجارب شتى في الانابيب فوضعوا مقدار ملغرام واحد من فيتامين K المركب في ثلاث اوقيات من اللعاب تحتوي على ١٠ في المائة من وزنها سكرأ فنع وجود هذا القدر اليسير من الفيتامين ان تولد الاحماض في هذا المزيج مدى اربع ساعات وفعل هذا الفيتامين ليس فعلاً مطهرآ لأن التجارب اثبتت انه لا يمنع نمو البكتيريا

اندمال الجروح : كشف عجيب

(الكناكيت) مادة تعجل تعجلاً عجيباً نمو الانساج حيث اصيب العضو بجرح . وان هذه المادة يمكن استخلاصها من قلوب الفراخ والكلاب والضأن والبقر والارانب . وقد جربت الخلاصة في علاج جنود مصابين بجراح ففعلت اندمالها

هذه الفائدة العملية الجنيّة من هذه التجارب ، يجب ان تضاف اليها فائدة عامية ، وهي ان المواد التي تعجل النمو — اي تكاثر الخلايا — ليست مقتصرة على الاجنة بل توجد كذلك في قلوب الحيوانات الكبيرة . والخطوة التالية استخلاص هذه المادة ، — وقد تكون من قبل التور (هرمون) — ثم تركيبها بالتأليف الكيميائي واباحتها للناس

او في الايام الاولى من حياتهم يستنفذهم .
فيتامين K يستعمل الآن لتوقي هذه الحالات فاما ان تجرعه الحوامل في شهر الحمل الاخير وإما ان يعطى المواليد احتياطاً . ومن الشواهد على فعل هذا الفيتامين ان طفلاً وُلد وبعد ولادته بثلاثة أيام وجد دم في أنفه ، فاستخرجت قطرة دم من قدمه للبحث فوجد انها تخرت بعد ١١ دقيقة من استخراجها ولكن دم الجرح بقي يسيل ١٢ ساعة فخرج مقداراً صغيراً من الفيتامين فوقف النزف من قدمه وبعد مضي ٩٠ دقيقة قهر وقت التخرت الى النصف ثم الى الوقت العادي وهو ثلاث دقائق هذا شيء عن فعل هذا الفيتامين في منع النزف . ولكن له فائدة اخرى عظيمة الشأن

في كثير من معامل البحث الطبي والبيولوجي يسعى عشرات من الباحثين الى الكشف عن مادة تساعد الاجسام التي اُصيبَت بجراح على الشفاء . ففي انكترا مثلاً يجربون الآن مادة تدعى « ابيكوتان » Epicutan — وهي مستحضرة من أجنة العجول — في شفاء جراح الحرب المستعصية . وقال فريق من الاطباء الباحثين في مدينة سنسنتاتي الاميركية ان محضهم أسفر عن ان الانساج المصابة بجرح تولد بفعل الجرح مادة ما تعجل الاندمال ثم نقلت مجلة « نايتشر » المشهورة ان الدوائر الطبية بالجيش البريطاني في القدس الشريف ، كشفت بالاشتراك مع الباحثين في معامل الجامعة العبرية ، ان في قلوب الفراخ

سر طبي : كشفه بعد الوفاة

وبدت على الفئران دلائل المقاومة ، ولكن فأرين أصيبا في اليوم التاسع وأصبحا لا يمشيان إلا متناقلين . فقتلا وأخذ من مخيما محلول حقن في عشرة فئران سليمة فما لبثت حتى شلت وماتت . فقرر الباحثون ان الفيروس في هذه الاصابات هو فيروس مرض النوم أو فيروس أحد الأمراض الجلدية أو فيروس السعار (الكب) . فيروس أيها هو ؟ ومضى الباحثون ينقلون الفيروس من مخ حيوان مصاب الى مخ حيوان سليم ، فازداد ما يرونه في كل محلول لاحق ، من جسيمات بيضية صغيرة أو كروية تدعى « جسيمات نجري Negri » وهي دليل لا ريب فيه على الإصابة بالسعار (الكب) . ولكي يستوثقوا من هذا الاستنتاج جربوا المصل المضاد للسعار فوجدوه يبطل فعل الجسيمات في حيوان مصاب

ومن ثمة عادوا الى تاريخ الرجل الذي أصيب وتوفي فوجدوا كيف أصيب . ذلك بأنه كان في ليلة عيد الميلاد يلعب كلبه ، فعصه الكلب في السبابة اليمنى فسمح الرجل مكان العضة بصبغة اليود ونسي ما حدث ، وبعد شهر ونصف شهر ظهرت عليه الاعراض التي أفضت الى وفاته . وقد خرج الباحثون بهذا المغزى ، وهو انه يتعين على مفتشي الصحة في منطقة منتشر فيها السعار ، ان يتيقظوا لاصابات في الناس لا تستوقف النظر اولا

ظن المصاب ان أحداً مادم له السم . وذهب طبيب الى انه مخبول وآخر الى انه مصاب بالأنفلونزا وأبى طبيب تحت التحري يشرف على سيارة لنقل المرضى أن يأخذه الى المستشفى لأن أصابته في رأيه لا تستدعي ذلك . فمضى المصاب وحده متناقلاً الى المستشفى وتوفي في اليوم التالي بينما كانوا يتأهبون لنقله الى جناح المصابين بالأمراض العصبية وصفت هذه الحادثة في مجلة « معاملة الطب السريري » الأميركية ، فقالت ان المصاب كان عاملاً من عمال نيويورك ، وكان بدءاً أصابته ارتفاع حرارته وجفاف حلقه وخشيته رؤية الماء . فلما ذهب الى المستشفى اشتدت أعراض الهذيان والتهيج فحكم حينئذ بأنه مصاب بمرض عصبي . فلما توفي في اليوم التالي شرّح فلم يستوقف نظر المشرحين إلا احتقان مام في البطن وندبة جرح في السبابة . ولكن نسيج جهاز العصي فحصاً فحماً مجهرياً فظهر التهاب بين المخ والحبل الشوكي . فما سبب هذا الالتهاب ؟ لم يظفر الباحثون بالجواب إلا بعد أسابيع من البحث المدقق . فقد أخذوا خلاصة مركزة من مخ المتوفى وحقنوها في مخي خنزيرين من خنازير الهند ومخي أرنبين وأمخاخ سنة فئران ، فوجدوا الخنزيرين ميتين في اليوم التالي . ومات الأرنبان في اليوم الحادي عشر واليوم الرابع عشر بعد الحقن .

توفيق اسكاروس

« نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر » واستهل هذا الجزء بتاريخ الحملة الفرنسية على مصر . وفي سنة ١٩١٣ أصدر الجزء الثاني من هذا الكتاب

وانضم الى لجنة التاريخ القبطي وساهم في تأليف ثلاث حلقات في سلسلة هذا التاريخ وكان الى ما قبل وفاته بايام مكباً على البحث والتأليف مع زملائه في سائر اجزاء هذه السلسلة وكان على اتصال بالمغفور له العالم الكبير ميخائيل شاروويم بك صاحب تاريخ « الكافي » وبذل كثيراً من المسمى في سبيل طبع الجزء الخامس من هذه الموسوعة الجليلة

وللاستاذ اسكاروس بحوث ومقالات في المقتطف والهلل والمقطم والاهرام وغيرها شاد فيها بحسنات حكم محمد على والخليو اسماعيل وكتب عشرات من الفصول في تاريخ الكنيسة ومجلة الشرق والغرب وغيرها من المجلات . وله محاضرات في الهيئات العلمية والمالية آخرها محاضرة ألقاها في دار الشباب الجامعي القبطي قبل وفاته بأيام وأسس مع أصدقائه له « جمعية النشأة القبطية منذ ٤٦ سنة وظل يصدر تقويمها السنوي كل هذه المدة بلا انقطاع . واشترك في النهضة الاصلاحية القبطية بقمه ولسانه فكان عضواً في جمعية التوفيق وفي المجلس الملى العام . ولما اشتهر به من الخبرة في فن تنظيم المكتبات ندب بعد اعزاله خدمة الحكومة لتنظيم مكتبة قصر عابدين ومكتبة الدار البطريركية القبطية

في ليلة اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ نعي الى الصحف اليومية الطبيب الذكر الاستاذ توفيق اسكاروس وله من العمر نحو ٦٨ سنة . فانطلقت بوفاته شعلة حياة عاملة دؤوبة . وطُوي سجل زخرت صفحاته بايات باهرة من النشاط العقلي

كان الفقيه من أوائل الناجحين في امتحان البكالوريا في سنة انشاء هذه الشهادة والتحق بمدرسة الحقوق الخديوية فأتتم دراسة القانون ونال الليسانس وعين على الاثر في وظيفة في المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) فساعد ذلك على معايشة خير رفيق للمرء في الحياة ونعني به « الكتاب » لأنه لم يكتف بتأدية عمله « الروتين » في وظيفته بل ملا أوقات فراغه بالمطالعة . ولقد له ان يختار من موضوعاتها تاريخ مصر القديم وتاريخها الحديث . وشغف بهذا الجانب من التاريخ وعلى الاخص بما كان منه متعلقاً بالعصر المسيحي . فقرأ عشرات من المصنفات في اللغتين العربية والفرنسية ما بين مخطوط منها ومطبوع . واطلع على فهارس المكتبات العامة في اوربا وعلى كل كتاب حديث ظهر في نصف القرن الاخير في هذا الموضوع حتى حفلت جعبته بالمعلومات المتصلة به

فألف في سنة ١٩٠٩ رسالة في سيرة مرقس الرسول اجابة لطلب جمعية الرابطة المسيحية . وفي سنة ١٩١٠ أصدر الجزء الاول من كتابه

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الواحد بعد المائة

| | |
|-----|---|
| ٤٤٥ | العلم والديمقراطية |
| ٤٥٤ | نقط روسيا وحاجة هتلر |
| ٤٦١ | بعد الحرب : كيف تعالج المشكلات العالمية : للدكتور تشارلز وطسن |
| ٤٦٨ | وقفة وداع (قصيدة) : لعدنان مردم بك |
| ٤٦٩ | معضلة التغذية في مصر : للدكتور حسن كمال |
| ٤٨٢ | طبقات الارض وموارد القارات |
| ٤٨٥ | جغرافيو العرب وسوريا : لنقولا زيادة |
| ٤٩١ | الهيكسوس مطاردتهم في مصر : للدكتور باهور لبيب |
| ٤٩٥ | نشيد الشجرة : لمحمد يوسف حمود |
| ٤٩٦ | فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية : ليويسف كرم |
| ٥٠٣ | عوالم اخرى كثيرة كأرضنا |
| ٥٠٧ | المدخل الى علم الحيوان : للاب انستاس ماري الكرملي |
| ٥١٣ | الدمعة : نلقها الياس زعرور |
| ٥١٤ | فضائل الصلاة الصحية : للدكتور شوكت موفق الشطي |
| ٥١٧ | حديث المقتطف * الوطنية في نظر تاجور : لمحمود المنجوري |
| ٥٢٦ | باب المراسلة والمناظرة * استدراكات على الامتاع والمؤانسة : للدكتور بشر فارس . تعقيب على مقال فلسفة الاخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية : للشيخ محمد يوسف موسى |

| | |
|-----|--|
| ٥٣٤ | مكتبة المقتطف * عبقرية عمر : لمحمود محمد شاكر . فهرس الادب العربي في لبنان : لصالح الاسير . مجرى الادب في مصر سنة ١٩٣٨ . تاريخ الجامع الازهر في العصر الفاطمي : لمحمد عبد الغني حسن . الفكرة الريقية لفؤاد افندي : للصيرفي |
| ٥٤٤ | اخبار علمية * تضليل طائري الاعداء في الحرب الحالية : لعوض جندي . قبلة الاعماق والفواصة . فيتامين K ونخر الاسنان . اندمال الجروح : كشف عجيب . سر طبي : كشفه بعد الوفاة . توفيق اسكاروس |